(*)

المدرسة المستنصرية ببغداد

للسير كوركيس عواد

ملاحظ مكتبة مديرية الآثار القديمة العامة

١ — تمهيد

تشير التصانيف العربية القديمة ، الباحثة في التاريخ والبلدان والادب ، الى عدد كبير من المواطن التي انشأها الناس في مدينة بغداد ، خلال العصر العباسي : منها الجوامع ، والمساجد ، والمدارس ، والربط ، والبيمارستانات ، والقصور ، والدور ، والحمامات ، والاسواق ، والخانات ، والمقابر ، وغيرها من المباني الدينية أو المدنية مما يمكن أن يعد بالعشرات بل بالمئات اذا اريد الاستقصاء!

ولكن هاتيك الآثار العديدة لم تبق على ما كانت عليه أيام العباسيين ، لان عوامل الزمن ويد الانسان العابثة ، قد تضافرت جميعا على محقها وتدميرها ، فزال جميعها تقريبا من عالم الوجود وامحى أثره . والذي انتهى الينا من ذلك التراث ، نزر ضئيل المقدار نراه اليوم بحال مشوهة قلقة ، قد دب في أكثره دبيب الخراب . ولكنه بالرغم من هذه الحال المؤسفة ، خير دليل على رقي الريازة في ذلك العصر الزاهر ، وتفنن القوم في تجميل مبانيهم ومغالاتهم في تزويقها وزخرفتها .

واذا عمدنا الآن الى ذكر المباني العباسية القائمة في مدينة بغداد ذاتها ، ألفيناها تقل عن أصابع اليدين عدا ، من ذلك : المدرسة المستنصرية ، والقصر العباسي في قلعة بغداد ، وقبر معروف الكرخي ، وضريح الشيخ عمر السهروردي ، وباب الظفرية المعروف بالباب الوسطاني .

وبوسعنا القول دون ما تردد ، ان أعظم هذه المباني أثرا ، وأبعدها شهرة ، هي « المدرسة المستنصرية » ، التي عقدنا هذا البحث لدرس آثارها القائمة اليوم ، واستقصاء أخبارها السالفة مما وجدناه منثورا في بطون الكتب المختلفة .

٢ — تسمية المدرسة

عرفت هذه المدرسة بـ « المستنصرية » ، باسم بانيها « المستنصر بالله أبي جعفر المنصور » ، الخليفة العباسي السابع والثلاثين ، الذي دامت خلافته من سنة ٦٢٣ الى ٦٤٠ للهجرة (= ١٢٢٦ — ١٢٤٢ م) .

(*) الاشكال التي تزين هذا البحث ، من تصوير مديرية الآثار القديمة العامة ، ما عدا الشكل ٢ ، ٣ واللوح ٢ أ — ب ، ٧ أ — ب .

وتسمية المدارس ، فى العصور الاسلامية ، بأسماء مؤسسيها ، كان من الامور الشائعة المعروفة : فهناك مثلا المدرسة « النظامية » التى فرغ من بنائها الوزير نظام الملك(١) ببغداد سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٦م) . والمدرسـة « التاجية » (٢) ببغداد ، المنسـوبة الى تاج الملك أبى الغنائم المرزبـان بن خسرو فيروز ، المتولى لتدبير دولة ملكشاه بعد الوزير نظام الملك . والمدرسة « الشرابية » (٣) التى انشأها شرف الدين اقبال الشرابى بواسط ، سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) . وغير ذلك من المدارس التى ليس من غرضنا ذكرها فى هذا المقام .

٣ – نبذة في سيرة مؤسسها

غنى عن البيان ، ما كان لمؤسسها العظيم من حميد الصفات وجميل الذكر فى التاريخ . فهو الخليفة « أبو جعفر المنصور المستنصر بالله » العباسى ، ابن الظاهر بأمر الله ، وحفيد الناصر لدين الله .

ولد المستنصر سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) وبويع بالخلافة يوم وفاة أبيه فى ثالث عشر شهر رجب سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) . فنشر العدل بين رعاياه ، وقرب اليه أهل العلم والدين ، وأنشأ المساجد والمدارس والمارستانات والخانات للسابلة ، وغير ذلك من المرافق العمرانية العامة ، التى سطرت اسمه بين الخالدين .

والذى يؤسف عليه ، ان غير واحد من هـ تيك المآثر ، قد سطت عليه يد الدهر فقوضته وأزالت معالمه . ولم يتبق منها اليوم الا بعضها ، الذى ينطق بعظم صاحبه . وفى طليعة ذلك « المدرسة المستنصرية » ببغداد . وثانيها «قنطرة حربى»(٤) ، وهى على نحو من تسعين كيلومترا من شمال بغداد ، تقوم فوق عقيق نهر «دجيل» المندرس ، بمحاذاة طريق السيارات الممتدة بين بغداد وسامراء . ويؤخذ من الكتابة المدونة فى جبهتى هذه القنطرة ، أن المستنصر أقامها سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) .

---

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان (١ : ٢٠٢ طبعة بولاق الاولى سنة ١٢٧٥ هـ) .

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموى (١ : ٨١٠ طبعة وستنفلد فى ليبسك) .

(٣) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة لابن الفـوطى (ص ٧٦ طبعـة الـدكتـور مصطفى جواد ببغداد سنة ١٣٥١ هـ) .

(٤) عن هذه القنطرة ، راجع :

أ – Memoirs by Commander James Felix Jones (Bombay 1857; pp. 251-256).

ب – الى عكبرى وقنطرة حربى : لمصطفى جواد (لغة العرب ٨ « ١٩٣٠ » ص ٣٢٢ – ٣٢٣) .

ج – جسر حربى : لمديرية الآثار القديمة فى العراق (بغداد ١٩٣٥ وهى رسالة بالعربية ، وبالانكليزية) .

ومن مآثره أيضاً « خان الخرنبنى » (٥) الذى ترى اطلاله الى اليوم على يمين دجلة بين تكريت والبلاليق ، للذاهب الى الموصل .

دامت خلافة المستنصر زهاء سبع عشرة سنة ، أى الى وفاته فى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) ، فتولى الخلافة من بعده ، ابنه المستعصم بالله آخر خلفاء بنى العباس ببغداد .

وللمستنصر أخبار حسان كثيرة لا يسعنا استيعابها فى هذا البحث . ولابن الساعى المؤرخ البغدادى الشهير ، كتاب قائم برأسه فى حياة هذا الخليفة وسمه بـ « اعتبار المستبصر فى أخبار المستنصر (٦) لعبت به يد الزمن فلم ينته الينا . ومع ذلك ، فان المؤرخين الاقدمين ، غير ابن الساعى ، قد وفوا حياة المستنصر حقها من البحث فى تآليفهم المختلفة ، فليراجعها من اراد التبسط فى هذا الموضوع (٧) .

---

(٥) الفخرى لابن الطقطقى (ص ٣٨٠ طبعة أهلورد فى غوطا سنة ١٨٦٠) ؛ والاب انستاس مارى الكرملى فى مجلة المشرق (٨ « ١٩٠٥ » ص ٦٧٤ ـ ٦٧٥) .

(٦) تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار لابن رافع السلامى (طبعة الحامى عباس العزاوى ، بغداد ١٩٣٨ ؛ ص ١٣٨) وذكره كل من الصفدى (الوافى بالوفيات ١ : ٥١ طبعة رتر فى استانبول سنة ١٩٣١) . والحاج خليفة فى كشف الظنون (٣ : ٦٤٠ طبعة « فلوجل » باسم « سيرة المستنصر » .

(٧) راجع بهذا الصدد :

١ ـ الكامل فى التاريخ لابن الاثير (١٢ : ٢٩٩ طبعة تورنبرغ فى ليدن) .
٢ ـ بلغة الظرفاء فى ذكرى تواريخ الخلفاء لابن أبى السرور الروحى (ص ٦٨ القاهرة ١٩٠٩) .
٣ ـ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (٨ : ٤٢٤ و٤٨٩ ـ ٤٩٠ طبعة جويت فى شيكاغو ١٩٠٧) .
٤ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبرى (ص ٤٢٤ ـ ٤٤٢ طبعة صالحانى فى بيروت ١٨٩٠) .
٥ ـ الفخرى (ص ٣٨٠ ـ ٣٨٢) .
٦ ـ خلاصة الذهب المسبوك لعبدالرحمن الاربلى (ص ٢١١ ـ ٢١٣ بيروت ١٨٨٥) .
٧ ـ الحوادث الجامعة (ص ١٥٥ ـ ١٥٨ ، ١٧١ ـ ١٧٣) .
٨ ـ تاريخ أبى الفداء (٣ : ١٣٧ و١٧١ القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
٩ ـ البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير (١٣ : ١٥٩ ـ ١٦٠ طبع القاهرة) .
١٠ ـ تاريخ ابن خلدون « العبر وديوان المبتدأ والخبر » . (٣ : ٥٣٦ طبع بولاق) .
١١ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (٦ : ٣٤٥ ـ ٣٤٦ طبعة دار الكتب المصرية) .
١٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ القاهرة ١٣٥١ هـ) .
١٣ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى (٥ : ٢٠٩ طبع القاهرة) .
١٤ ـ أخبار الدول وآثار الاول للقرمانى (ص ١٨٠ طبع حجر ببغداد سنة ١٢٨٢ هـ) .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

٤ — موقعهـــا

لا نجانب الصواب اذا قلنا ، ان كل المدارس التي انشئت في بغداد في العصر العباسي ، قد امحت آثارها وأصبحنا لا نعرف أين كانت مواقعها بوجه التحقيق !

الا ان هذا القول لا ينطبق على « المدرسة المستنصرية » ، التي ما زالت بقاياها شـاخصـة الى يومنا هذا .

تقوم هذه المدرسة في الجانب الشرقي من بغداد ، على ضفة دجلة اليسرى ، قريبا من رأس الجسر الشمالي المسمى بـ « جسر المأمون » ، من جهته السفلى ، على قيد عدة أمتار منه .

تمتد جبهة المدرسة المستنصرية على ضفة النهر ، مسافة يبلغ طولها اليوم زهاء ١٠٥ أمتار . فحدودها الغربية ثابتة تنتهي بنهر دجلة (انظر اللوح ١ـأ) . وأما سائر حدودها فيمكن تعيينها اليوم بشيء من الصعوبة ، بالنظر الى ان بعض العمائر المستحدثة قد لاصقتها او داخلت مرافقها ، فضاعت بذلك بعض المعالم من حدود المدرسة : الشرقية والجنوبية ولا سيما الشمالية . فنجـــد هنـــاك الاسواق والحوانيت والمخازن قد زاحمتها في رقعتها : كسوق الرمـاح وسوق دانيـال وسـوق المولاخانه وقهوة المميز (٨) ، وغير ذلك من المباني المحدثة بمرور الايام .

٥ — تأسيسها

ذكر ابن الفوطي (٩) ، ان البدء بتأسيس هذه المدرسـة كان في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) . وكان المستنصر بالله أمر بانشائها . وقد تولى عمارتها استاذ الدار مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي (١٠) .

---

(٨) تاريخ مساجد بغداد وآثارها للآلوسي (ص ٩٨ الحاشية ١) ؛ ومقال يعقوب سركيس «المدرسة المستنصرية» في مجلة لغة العرب (٦ » ١٩٢٨ » ص ٣٥٢ ــ ٣٥٨) .

(٩) الحوادث الجامعة (ص ٥٣ ــ ٥٤) .

(١٠) هو الوزير الذي اشتهر ذكره في أيام سقوط بغداد بيد المغول . أما قوله « استاذ الدار » فاصطلاح مركب من لفظتين فارسيتين . احداهما : استد ومعناها الاخذ . والثانية : دار ومعناها المسك . فهو لقب من يتولى قبض مال الخليفة وصرفه . وقيل ان موضوعها « التحدث في أمر بيـوت السـلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان وغير ذلك . » وهذا المعنى الاخير هـو المراد في عصر المستنصر بالله . راجع تفاصيل ذلك في رحلة ابن جبير في ذكر مجد الدين بن الصاحب « ص ٢٢٧ » طبعة دي غوية ، وصبح الاعشى للقلقشندي (٤ : ٢٠ و ٥ : ٤٥٧ و ١١ : ١٦٨ ــ ١٧٠) والتعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري (ص ٩٦ ــ ٩٨) .

ولا حاجة بنا الى القول ، ان المستنصر بالله لما اعتزم على انشاء هذا الصرح العلمي الخالد ، لابد انه استقدم له أمهر المهندسين وأحذقهم ، فاستفرغوا ما في وسعهم في وضع قياساتها وتخطيط أبعادها . ثم أكب البناؤون والصناع على اقامة البناء وزخرفته وتجميله بالكتابات ، واستمروا على ذلك بضع سنين ، حتى تكاملت في جمادى الآخرة من سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٤ م) .

٦ ــ تخطيطهـــا

من يلق نظرة عامة على هذه المدرسة ، يجدها مستطيلة الشكل ، طولها يوازي مجرى دجلة ، وهو يبلغ الآن ٨٠ و ١٠٤ مترا (١١) ، وعرضها من الجهة الشمالية ٢٠ و ٤٤ مترا ، ومن الجهة الجنوبية ٨٠ و ٤٨ مترا . فتكون مساحة المدرسة ، بالاستناد الى هذه الابعاد ٤٨٣٦ مترا مربعا . هذا باستثناء « الرصيف » الحالي الذي يمتد حيالها على النهر الى مسافة معدلها ٨٠و١١ مترا . فمساحة هذا الرصيف تبلغ ٢٠و ١٢٢٧ مترا مربعا .

وقد روعي في بناء هذه المدرسة ، أن تكون مشتملاتها كاطار يحيط بها . فالحجر والغرف ، والقاعات ، والاواوين والاروقة ، وغير ذلك من المباني تحف بها من جهاتها الاربع ، ويتوسطها صحن طويل فسيح ، أبعاده ٤٠ و٦٢ × ٤٠ و٢٧ مترا (انظر المخططات في الاشكال ١ و٢ و٣) .

ان الرقعة المغطاة بالبناء من هذه المدرسة ، تبلغ مساحتها نحو ٣١٢٦ مترا مربعا . فهي مما تستوعب كل مستلزمات المدرسة : كحجر الدرس والنوم والطعام وخزانة الكتب والادوية والمخازن الاخرى والمطبخ وغير ذلك مما سنجيء بذكره .

تتألف المدرسة من طبقتين ، في كل منهما طائفة كبيرة من الغرف والقاعات . أما «الاواوين» فارتفاعها بارتفاع الطبقتين معا (انظر اللوح ٢ أ) .

ولا يمكننا أن نعين في الوقت الحاضر ، ارتفاع البناية بطبقتيها ، بالنظر الى ان مستوى فرش « أرضية » المدرسة قد تغير كثيرا عما كان عليه في أيام عزها . فالاتربة والاوساخ قد تراكمت وتكدست في كل مكان منها ، حتى أضحى تعيين المستوى الحقيقي لارض المدرسة متعذرا ما لم يجر تنظيفها بوجه يعيدها الى سابق حالها .

ومهما يكن من أمر ، فان الارتفاع التقريبي للبناية بطبقتيها معا ، يبلغ زهاء عشرة أمتار .

---

(١١) أشكر السيد محمود علي ، المهندس في مديرية الآثار القديمة العامة ، على ما أمدني به من قياسات هذه المدرسة وأبعادها .

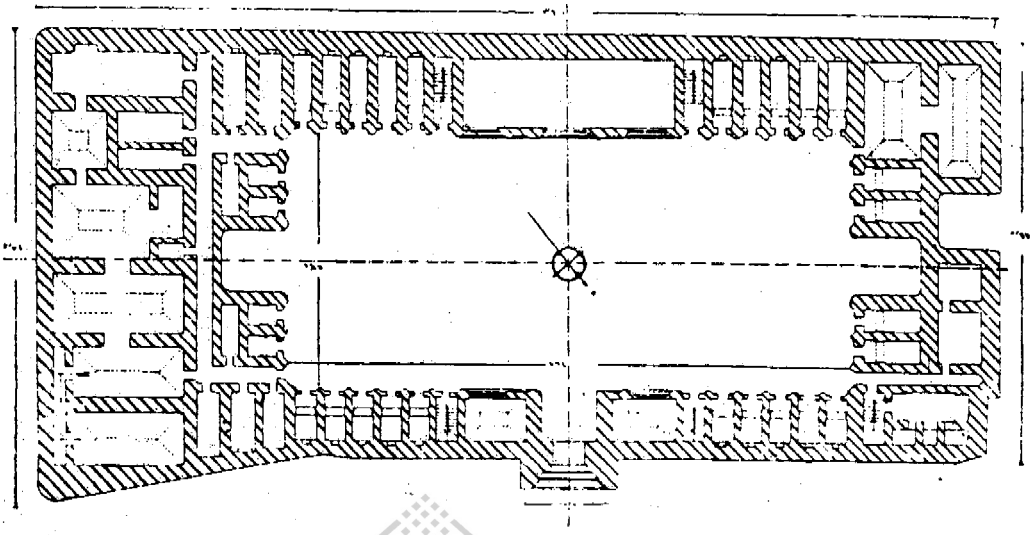

(الشكل ١) المستنصرية ـ مخطط الطبقة السفلى من المستنصرية

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

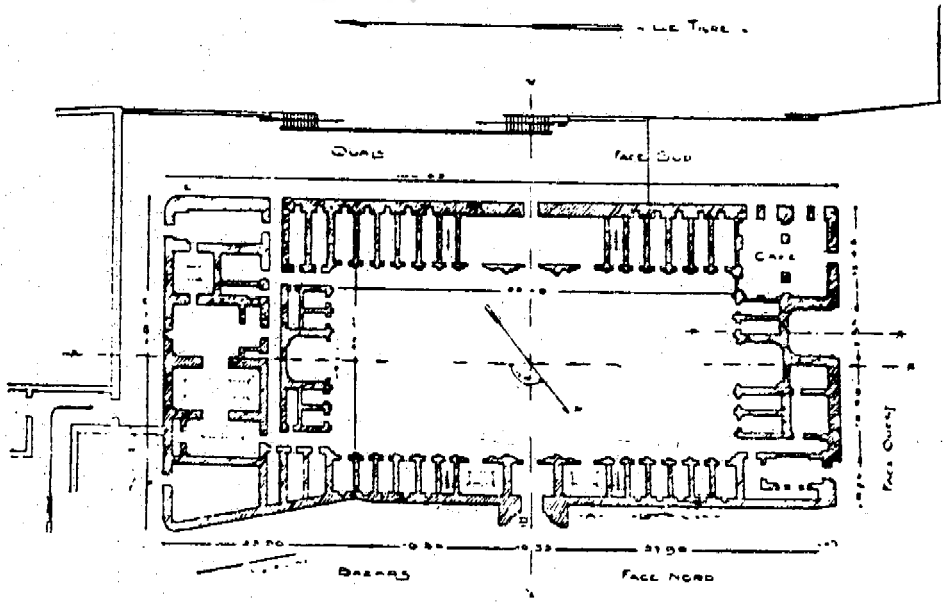

(الشكل ٢) المستنصرية ـ مخطط الطبقة السفلى من المستنصرية (عن فيوله)

٧ — افتتاحهـــا

كان الشروع فى تشييد المستنصرية سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) ، وتكاملها فى جمادى الآخرة سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م) كما ذكرنا سابقا . فلما تكملت « ركب نصير الدين (أبو الازهر أحمد) ابن الناقد نائب الوزارة فى يوم الاثنين خامس عشر جمادى الآخرة وقصد دار الخلافة واجتاز بهـا الى دجلة ، ونزل فى شبارة (١٢) من باب البشرى (بدار الخلافة أيضا) مصعدا الى الدار(١٣)

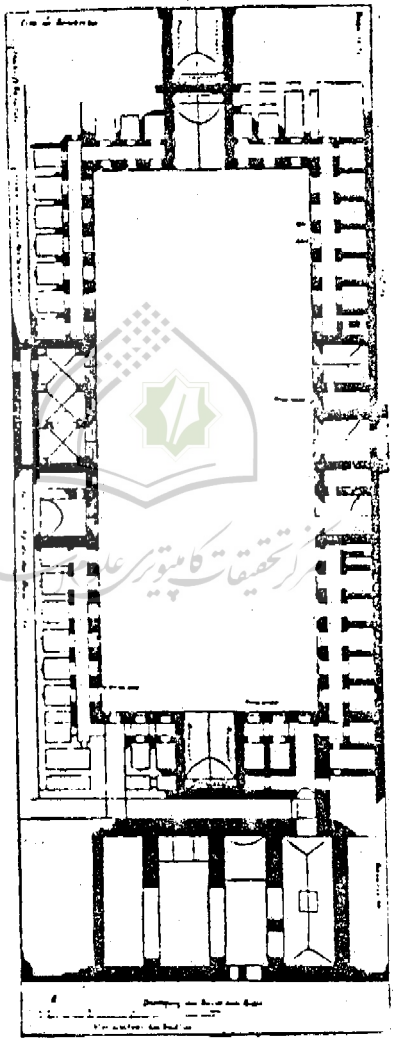

Abb. 109. Baghdad, Mustansiriyyah.

(الشكل ٣) المستنصرية ــ مخطط الطبقـــة العليا من المستنصرية
(عن هرتسفلد)

(١٢) الشبارة : ضرب من السفن النهرية فى العراق ، أيام العباسيين .

(١٣) سنتكلم على هذه « الدار » فى موضوع « مرافق المدرسة » .

المستجدة المجاورة لهذه المدرسة ، وصعد اليها وقبل عتبتها ودخلها وطاف بها ودعا لمالكها • وكان معه استاذ الدار مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمى ، وهو الذى تولى عمارتها (كمـا أومأنا اليه) • ثم عاد متوجها الى داره فى الطريق التى جاء بها ، وخلع على استاذ الدار وعلى أخيه (علم الدين) أبى جعفر (أحمد بن العلقمى) وعلى حاجبه عبدالله بن جمهور وعلى المعمار والفراشين المرتبين فى الدار المذكورة المستجدة وعلى مقدمى الصناع • ونقل فى هذا اليوم الى المدرسة من الربعات (١٤) الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والادبية ما حمله مائة وستون حمالا ، وجعلت فى خزانة الكتب (١٥) • وتقدم الى (١٦) الشيخ عبدالعزيز (بن دلف الناسخ الصوفى) شيخ رباط الحريم بالحضور بالمدرسة واثبات (١٧) الكتب واعتبارها ، والى ولده العدل ضياء الدين أحمـد الخازن بخزانة كتب الخليفة التى فى داره أيضا • فحضر واعتبرها ورتبهـا أحسن تـرتيب مفصلا لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها •

« وفى بعض هذه الايام ، حضر الخليفة هناك ، وحضر الشيخ عبدالعزيز بين يديه وسلم عليه، وأعقب دعاءه بأن تلا قوله تعالى : « تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا » (١٨) • فبدا خشوع الخليفة وتقاطرت دموعه » (١٩) •

وما أوردنا ذكره من الاخبـار ، لم يكن فى الحقيقة الا تمهيدا لحفلة افتتاح المدرسة افتتاحا رسميا ، يناسب مقام هذه المدرسة • وقد وصف ابن الفوطى هذه الحفلة وصفا رائعا بقوله :

« وفى يوم الخميس خامس شهر رجب (٦٣١ هـ = ١٢٣٣) ، حضر نصـير الدين نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء ومشايخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء وجماعة من أعيان التجار الغرباء الى المدرسة ، وتخير لكل مـذهب من المـدارس وغيرها اثنان وستون نفسا ، ورتب لها مدرسان ونائبا تدريس • أما المـدرسان فمحيى الـدين أبو عبدالله محمد بن يحيى بن فضلان الشافعى ، ورشـيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغانى

---

(١٤) الربعات ، واحدتها الربعة ، وهى على ما فى تاج العروس (٥ : ٣٤٣) بمعنـى صنـدوق فيه أجزاء المصحف الكريم ، وهى مولدة لا تعرفها العرب ، بل هى اصطلاح أهل بغداد •

(١٥) انظر الفصل المعنون « خزانة الكتب » من هذا البحث •

(١٦) تقدم الى ، بمعنى : أمر

(١٧) اثبات الكتب أى كتابة أسمائها فى دفتر أو ثبت •

(١٨) سورة الفرقان (الآية ٩) •

(١٩) الحوادث الجامعة (ص ٥٣ ـ ٥٥) •

الحنفي ، وخلع على كل واحد منهما جبة سوداء وطرحة كحلية وأمطى بغلة بمركب جميل وعدة كاملة . وأما النائبان فجمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن ابن يوسف ابن الجوزى الحنبلى ، نيابة عن والده لانه كان مسافرا فى بعض مهام الديوان ، والآخر أبو الحسن على المغربى المالكى ، وخلع على كل واحد منهما قميص مصمت وعمامة قصب ، ثم خلع على جميع المعيدين ، وهم لكل مذهب أربعة ، خلعا بالحكاية ، ثم خلع على المتولين للعمارة والصناع والحاشية ، وعلى المعينين للخدمة بخزانة الكتب ، وهم الشمس على بن (يوسف بن سعد) الكتبى الخازن ، والعماد على بن الدباس المشرف ، والجمال ابراهيم بن حذيفة المناول . ثم مد سماط فى صحن المدرسة أجمع ، فكان عليه من الاشربة والحلواء وأنواع الاطعمة ما يجاوز حد الكثرة (٢٠) ، فتناوله الحاضرون تعبئة وتكويرا ، ثم افيضت الخلع على الحاضرين من المدرسين ومشايخ الربط والمعيدين بالمدارس والشعراء والتجار الغرباء ، ثم انشد الشعراء المدائح فيها وفى منشئيها . فممن أورد العدل أبو المعالى القاسم بن أبى الحديد المدائنى الفقيه الشافعى :

ما مثل الفلك العظيم لمبصر ... فى الارض قبل أيالة المستنصر (٢١)
هذا بناء معرب عن قدرة ... رفعت قواعده بفعل مطهر
حسدت به الارض السماء ولم يزل ... حسد الفضائل فى طباع الغصر
انظر تجد نظم الثريا فى ذرى ... شرفاته وضياء نور المشترى
ضحك الزمان وذاك بعد عبوسه ... ورأى الصواب وذاك بعد تحير
فالافق بين مفضض ومذهب ... والجو بين مكوفر ومعنبر
والارض حاسرة القناع كأنها ... خود تبرج فى رداء أخضر
تزهو بما عمر الخليفة فوقها ... علما لاحكام البشير المنذر
بالجانب الشرقى بالشاطى الذى ... هو طور سينا كل صاحب منبر

ومنها :

ما حق دجلة أن تفوه بلفظة ... قهرت وأى مساجل لم يقهر
غلب العطاء الماء فيها وانثنى ... سدا يفوق صناعة الاسكندر

---

(٢٠) قال ابن كثير (البداية والنهاية ١٣ : ١٤٠) بهذا الصدد : « وعمل سماط عظيم بها (أى بالمستنصرية) أكل منه الحاضرون ، وحمل منه الى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعوام » .

(٢١) هذا سهو من المؤرخ فان هذه القصيدة انشدت فى افتتاح ساعة المستنصرية وايوان فلكها لان فيها تمثيل «الفلك العظيم ونظم الثريا ونور المشترى» وتأخر تكاملها عن زمان تكامل المستنصرية : قاله مصطفى جواد

ان أصبحت بحـــرا فان بنـانه ... بافاضة المعـروف خمسـة أبحـر
وضع الامام بهـا أساس بنـائـه ... والموج بين مجمجم ومـزمجـر
قصرا ومـدرسـة لمن طلب الغنى ... أو رام شـــأو العـالـم المتبحـر
هى جنة الفردوس يجرى تحتها ... من ماء دجلـــة مـاء نهـر الكوثر
حصباؤهـا در النظـام وتـربهـا ... مسك الجنوب وطينهـــا كالعنبر
أضحى سليمان الـزمان وأهلـه ... مستخـدمـا فيهـا بجنـة عبقـر
لبس الغبى بها شهـامـة مـاهـر ... وغـدا المقـل مزاحمـا للمكثـر
لم تخل من حبر وشيخ فاضـــل ... يروى الحديث وساجـد ومعفـر
قد كانت الفقهـــاء قبل بنائهـــا ... فى كل قطر واحد لـم يـذكـر
فرقا يشـق على المـريـد طلابهـا ... فى الشرع والمطلـوب كالمتعـذر
فاليوم قد جمعت امور الدين فى ... ارجائهـا وازيـل عـذر المقصـر

وأورد بعده جماعة كثيرة ، ثم ذكر المدرسان المقدم ذكرهما كل واحـد منهما على سدته ، والنائبان كل واحد منهما تحت السدة ، ثم قسمت الارباع فسلم ربع القبلة الايمن الى الشافعية ، والربع الثانى يسرة القبلة للحنفية ، والربع الثالث يمنة الداخل للحنابلة ، والربع الرابع يســـرة الداخل للمالكية ، وأسكنت بيوتها وغرفها وأجرى لهم الجراية الوافرة ، عملا بشرط الواقف . ثم نهض نصير الدين وأرباب الدولة والحاضرون . وكان يومئذ الخليفة جالسا فى الشباك الذى فى صدر الايوان ، ينظر جميع ما جرت الحال عليه » (٢٢) .

٨ — مرافق المدرسة

احتوت المستنصرية كل ما كانت تقتضيه الحاجة من المبانى والتشكيلات : فهنـالك الصحن ، تحيط به الاواوين والبيوت والغرف المختلفة والاروقة . وسنفرد لكل من ذلك نبذة تفى بالغرض المطلوب من هذا البحث ، فيتألف من جميع هذه النبذ وصف شامل لكل هاتيك الاقسام ـ

١ ـ الصحن :

فى المبانى الشرقية الكبيرة ، كالمدارس والجوامع والقصور والخانـات وغيرهـــا ، يـراعى فى الحجر والقاعات وسائر المسقفات ، أن تكون متجاورة ، بحيث يقوم من مجموعها نطاق مـربـع أو مستطيل الشكل ، يتوسطه صحن .

(٢٢) الحوادث الجامعة (ص ٥٥ ـ ٥٨)

وهذا ما كان يشاهد في بناية المستنصرية (انظر المخططات في الاشكال ١ و٢ و٣) . ففيها صحن مستطيل ، فسيح الارجاء ، يكسب المدرسة روعة وجمالا . ويبلغ طول الصحن ٤٠ و ٦٢ مترا ، وعرضه ٤٠ و ٢٧ مترا . فمساحته اذا كانت نحو ١٧١٠ أمتار مربعة .

ان هذا الصحن ، قد سقفته دائرة الكمرك بسقف من الجنكو معدني ساذج لتقي البضائع التي تخزنها فيه من الامطار وغيرها (انظر اللوح ١ ب) .

ولقد كان هذا الصحن في أيام عز المدرسة ، مطبقا بالآجر ، تتوسطه بركة [٢٣] يأتي ماؤها من دجلة فيجري تحت الارض ، فاذا انتهى اليها خرج منها الى المزملة التي يأتي عليها الكلام في الفقرة (٦) من هذا الفصل .

والمؤسف حقا ، انه لا يرى اليوم شيء من تبليط هذا الصحن ، بل ان الاتربة والنفايات قد علته . فمستوى الصحن الاصلي لا يمكن أن يعرف بوجه صحيح ما لم ينظف من هذه الاتربة كما اشرنا اليه في سالف قولنا .

وقد أشار ابن الفوطي في حفلة افتتاح المستنصرية ، انه « مد سماط في صحن المدرسة أجمع ، فكان عليه من الاشربة والحلواء وانواع الاطعمة ما يجاوز حد الكثرة ، فتناوله الحاضرون تعبئة وتكويرا » [٢٤] .

وذكر أيضا ان قد جدد تطبيق صحن المدرسة ، في سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) [٢٥] .

ومن غريب الاخبار التي ساقها ابن الفوطي ، فيما له علاقة بصحن المستنصرية ، قوله في أحداث سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) « فيها ، سقط بعض الفقهاء بالمدرسة المستنصرية من غرفة الى صحن المدرسة ، فمات في يومه » [٢٦] .

٢ — الاواوين

كان في المستنصرية أربعة أواوين ، خص كل منها بمذهب من المذاهب الاربعة . وقد بولغ في اتقان بنائها وتجويد زخرفتها بالزخارف الهندسية والنباتية الدقيقة ، مما يدل على علو كعب القوم في الريازة والحفر . وان نظرة واحدة الى ما تبقى من زخارف هذه الاواوين (انظر اللوح

(٢٣) الحوادث الجامعة (ص ٣٦٥) .
(٢٤) الحوادث الجامعة (ص ٥٦) .
(٢٥) الحوادث الجامعة (ص ٣٦٥) .
(٢٦) الحوادث الجامعة (ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦) .

٤ أ ـ ب ، واللوح ٥ ، واللوح ٦ ـ أ) تكفي لايضاح ما ذكرنا ، لانها خير دليل على حسن الصنعة وجمال الفن .

ان ارتفاع سقف كل واحد من هذه الاواوين ، يبلغ ارتفاع طبقتي البناء معا . فهو اذا يبلغ زهاء تسعة أمتار . أما عرض فتحة الايوان ، فتبلغ ٦ أمتار ، وطوله ٧٫٨٠ مترا .

لقد سدت فتحة الايوان الجنوبي في بعض السنوات المتأخرة (اللوح ١ ـ ب) ففقد بذلك جماله وحجبت عن الانظار معالم الزخرفة النفيسة التي يزدان بها صدره وسقفه ، تلك الزخرفة التي ما زال أكثرها لم ينله التشويه .

وفي سنة ١٩٣٥ رمم هذا الايوان بعض الترميم ، ولكن ذلك لم يكن بالدواء الناجع للداء الذي ابتلي به هذا الاثر !

أما الايوان الشمالي فقد تشعثت فتحته ، وأصابه شيء كثير من التلف ، واختفت زخارف صدره وسقفه بالقشرة الجصية التي كسيت بها في عهد متأخر .

أما الايوانان الآخران ، فمعالمهما مشوشة ، الى حد بعيد .

ومما يشبه الاواوين في شكله وليس منها ، مدخل المدرسة (انظر اللوح ٣ ـ ب) . فهو من السعة بما يمكن عده ايوانا صغيرا . ولقد كان سقفه مزخرفا ، ولكن هذه الزخرفة قد اختفت مع الاسف تحت طبقة الجص الذي جصص به .

وهنالك ايوان آخر ، يعد من مفاخر الفن الاسلامي ، يلاصق صدره الجبهة الشمالية للمدرسة . فهو بهذا الاعتبار لا يعد من أواوين المدرسة ذاتها ، وانما هو ايوان « الدار المجاورة » التي مرت الاشارة اليها ويأتي كلامنا عليها مفصلا .

ومن نكد الدهر ، أن يكون هذا الايوان حتى سنة ١٩٣٤ مؤجرا لاحد الخبازين الذين لا يهمهم من أمر الآثار شيء ، فتسبب فيه فرنه ! وكأن هذا الاثر النفيس لا يصلح الا أن يتخذ منه فرن ، فكان من نتائج ذلك أن شوهه الدخان وغبار الطحين ، وسود ما فيه من الزخارف العربية الجميلة (اللوح ٤ أ ـ ب ، واللوح ٥) .

وبعد أخذ ورد طويلين بين مديرية الآثار القديمة ومديرية الاوقاف ببغداد ، وافقت الثانية ، بكونها المتولية على المستنصرية على اخراج هذا الخباز من الايوان ، ولكنها عادت فآجرته اسكافا ، وما زال يشتغل فيه الى الآن ! !

* * *

فى كلام ابن بطوطة على الجانب الشرقى من بغداد ، وصف طريف لما شاهده هذا الرحالة فى أواوين المستنصرية سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٦ م) ، فقال ان « بها المذاهب الاربعة ، لكل مذهب ايوان ، فيه المسجد وموضع التدريس ، وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط ، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار ، لابسا ثياب السواد معتما ، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه ، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الاربعة »(٢٧).

فهذا ما كان يجرى فى أواوين المستنصرية فى أواسط المائة الثامنة للهجرة ، اذ لا يخفى ان وفاة ابن بطوطة كانت فى سنة ٧٧٧ هـ (١٣٧٥ م) .

وقد أشار ابن الفوطى الى موقع أرباع المذاهب الاربعة فى المدرسة بقوله : « ثم قسمت الارباع : فسلم ربع القبلة الايسر الى الشافعية والربع الثانى يسرة القبلة للحنفية ، والربع الثالث يمنة الداخل للحنابلة ، والربع الرابع يسرة الداخل للمالكية » (٢٨) .

ومعنى هذا ، ان أبناء المذهب الشافعى سلم اليهم الربع النهرى الشمالى من المدرسة وهو المطل على دجلة . وأبناء المذهب الحنفى سلم اليهم القسم النهرى الجنوبى . وأخذ الحنبلية القسم الجنوبى المجاور للقسم الشمالى الآن فى سوق الهرج ، والمالكية القسم الجنوبى منه ، عن ما تراه فى المخطط (الشكل ٤) .

ويبدو مما ساقه ابن الفوطى ، ان فى صدر أحد هذه الاواوين شباكا . قال فى خبر فتح

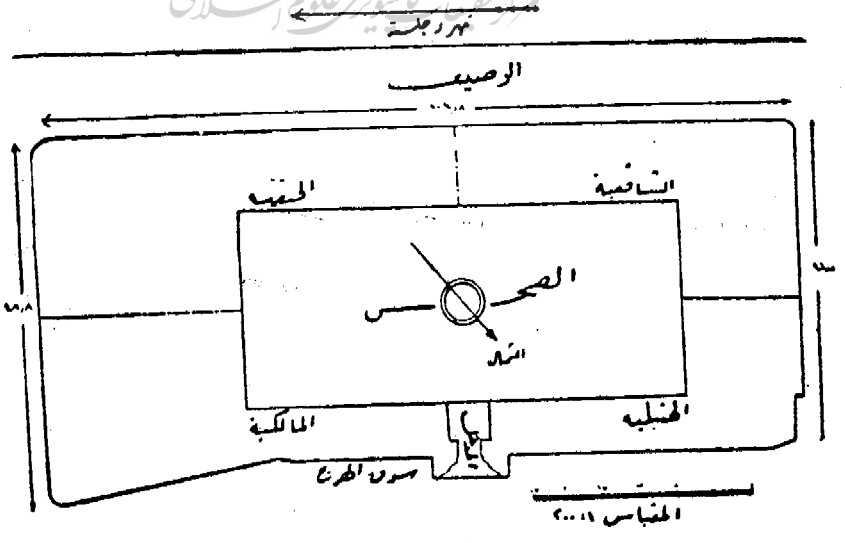

(الشكل ٤) المستنصرية ــ أرباع المذاهب الاربعة فى المستنصرية

(٢٧) رحلة ابن بطوطة (٢ : ١٠٩ طبع باريس) .

(٢٨) الحوادث الجامعة (ص ٥٨) .

المستنصرية سنة ٦٣١ (١٢٣٣ م) : « وكان يومئذ الخليفة (المستنصر) جالسا فى الشباك الذى فى صدر الايوان ، ينظر جميع ما جرت الحال عليه » (٢٩) .

وأشار فى الدعوة التى عملت سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) للامير اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، انه « حضر وجلس على ايوانها » (٣٠) .

وفى تلك السنة أيضا عملت للملك الناصر ناصر الدين داود الايوبى ملك دمشق دعوة فى المستنصرية ، فحضر و « جلس على طرف ايوانها الشمالى ، ووقف مماليكه وأصحابه فى ربعى المالكية والحنفية » (٣١) .

وفى سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ، عملت فى المستنصرية دعوة ثالثة لنورالدين ارسلان شاه بن عماد الدين زنكى صاحب شهرزور ، « فحضر اليها وجلس على طرف ايوانها الصغير » (٣٢) .

٣ — البيوت والغرف

فى كل من طبقتى المستنصرية ، بيوت وغرف عديدة متجاورة ، بنيت للدرس ولسكنى الطلبة ولغير ذلك من الاغراض المدرسية . ولم ينوه المؤرخون بعدد هذه الحجر والغرف ، ولكننا اذا عقبنا الباقى منها وأحصيناه ، وجدناه لا يقل عن مائة حجرة وغرفة ، بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة .

من هذه الحجر والغرف ، اثنتا عشرة قاعة كبيرة ، ارتفاعها ارتفاع طبقتى البناية معا .

أما البيوت الصغيرة فهنالك ٣٩ بيتا فى الطبقة السفلى ، ومثلها من الغرف فى الطبقة العليا . وفى المدرسة غرف نصف متهدمة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة .

ان قسما من أبواب حجر الطبقة السفلى قد سد أخيرا . ويلاحظ أن عدة من هذه الابواب يعلوه زخرفة ، وفوقها « سكة » من الآجر ويعلو ذلك زخرفة هندسية على ما ترى توضيحه فى اللوح ٢ — ب .

---

(٢٩) الحوادث الجامعة (ص ٥٨) .

(٣٠) الحوادث الجامعة (ص ٨١) .

(٣١) الحوادث الجامعة (ص ٧٨) .

(٣٢) الحوادث الجامعة (ص ٨٩) .

٤ً — الرواق :

في المستنصرية رواق زالت بعض معالمه . والرواق سلسلة من العقادات تلاصق وجوه بيوت المدرسة من جهة ، وتطل على صحنها من الجهة الاخرى ، على نحو ما يرى في كثير من المباني في العراق وسورية ومصر وغيرها من الاقطار .

وكان هذا الرواق يسترعي انتباه زائري المدرسة . فان الامير ركن الدين اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، في مدة اقامته ببغداد ، عملت له سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) دعوة في المدرسة المستنصرية ، « فحضر وجلس على ايوانها ، وقرأ القراء ، وذكر المدرسون الدروس ، ثم طيف به في رواقها » (٣٣) .

وقد اصيب هذا الرواق بحادث سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) . فقال ابن الفوطي ان في هذه السنة « وقعت صاعقة في شباط على الرواق بالمدرسة المستنصرية ، فشعثت منه موضعا » (٣٤) .

٥ً — المسناة :

المسناة ، وتجمع على مسنيات : لفظة كانت شائعة الاستعمال في العصر العباسي ، وهي ما زالت معروفة الى يومنا هذا بين أكثر العراقيين ، تلفظ عندهم « مسناية » (٣٥) .

ولما كانت المدرسة المستنصرية مطلة على دجلة ، كان لابد لها من مسناة رصينة البنيان تقيها شر طغيان النهر ، وتمنع عنها تسرب مياهه الى داخلها . فهي من مستلزمات الابنية التي تطل على المياه . حتى لقد ذكر التوحيدي في معرض التنديد قول من قال « ... ويا قصرا بلا مسناة ! » (٣٦)

لا نعلم بوجه التأكيد كم كان امتداد هذه المسناة في جبهة النهر ، وكم ثخنها ؟ ومما لا شك فيه انها كانت بطول المدرسة ، مع زيادة احتياطية من أعلى البناية ومن أسفلها .

ان المسناة التي اقيمت في زمن المستنصر ، لم تبق على حالها ، بل تهدمت وبليت بفعل المياه وكرور السنين . وهذه المسناة المكينة البنيان التي نراها اليوم انما هي محدثة (انظر اللوح ١٢ — ب)

---

(٣٣) الحوادث الجامعة (ص ٨١) .

(٣٤) الحوادث الجامعة (ص ١٠٠) .

(٣٥) انظر مقالي « الدار المعزية ببغداد » المنشور في بضعة أعداد من مجلة « الثقافة » . المراجعة في ٥ (١٩٤٣) العدد ٢٢٦ ، ص ٤١٥) .

(٣٦) الامتاع والمؤانسة لابي حيان التوحيدي (٢ : ٦٠) .

٦ـ المزملة

مدرسة عظيمة كهذه ، مطلة على دجلة ، لابد أن يتوفر فيها الماء الحسن الذى يفى بحاجاتها المختلفة ، وفى ضروريات هاتيك الحاجات ماء الشرب .

لقد كان فى المستنصرية « مزملة » (٣٧) ، أورد ذكرها ابن الفوطى بقوله :

« فيها (أى فى سنة ٦٦٨ هـ = ١٢٦٩ م) تقدم علاء الدين صاحب الديوان بعمل دولاب تحت مسناة المدرسة المستنصرية ، يقبض الماء من دجلة ويرمى الى مزملتها ، ثم يجرى تحت الارض الى بركة عملت فى صحن المدرسة ، ثم يخرج منها الى مزملة عملت تجاه ايوان الساعات خارج المدرسة ، وجدد تطبيق صحنها وتبنيد حيطانها . وكان المتولى لذلك شمس الدين حميد الخراسانى صدر الوقوف » (٣٨) .

وكان لهذه المزملة من يتعهد شؤونها ، فى مقابل راتب معلوم يتقاضاه . فقد أورد بعض مؤرخى بغداد ، فى ترجمة محمد بن يوسف بن عبدالله بن محمود الجزرى ثم المصرى الشافعى الفقيه النحوى ا لخطيب المعروف بابن الحشاش ، المولود سنة ٦٦٧ هـ (١٢٣٩ م) ، انه « دخل المستنصرية فشرب من المزملة ، فلما فرغ قال للذى فيها ، وكان عليه بزة : حاشاكم أو ما هذا معناه ، فقال شخص : لا تقل له هكذا ، هذا له خمسة دنانير على سقى الناس ، أو ما هذا معناه » (٣٩) .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

٧ـ الحمام

كان من جملة مرافق هذه المدرسة حمـام (٤٠) خاص بالفقهاء ، ولمن ينتسب الى المدرسة . ولا نعلم كيف كانت هذه الحمام من داخلها ، لان آثارها قد زالت كما زالت كل الحمامات القديمة البغدادية .

---

(٣٧) قال الزبيدى فى تاج العروس (٧ : ٣٦١ مادة : ز م ل) : « والمزملة ، كمعظمة : التى يبرد فيها الماء من جرة أو خابية خضراء ، قاله المطرزى فى شرح المقامات ، وهى لغة عراقية يستعملها أهل بغداد ، كما فى العباب » ا هـ .

ونضيف الى ما تقدم شرحه ، ان المزملة ، ما زالت معروفة فى بعض انحاء العراق ، غير بغداد ، كالموصل . وهى هناك حوض كبير ، بهيئة متوازى المستطيلات ، منقور من الصخر ، يملأ من الماء . وهذا النوع هو المراد فى زمان المستنصرية وما بعده .

(٣٨) الحوادث الجامعة (ص ٣٦٥) .

(٣٩) منتخب المختار (ص ٢١١ ـ ٢١٣ الرقم ١٨١) .

(٤٠) تاريخ مختصر الدول لابن العبرى (ص ٤٢٥) ، ورحلة ابن بطوطة (٢ : ١٠٩ طبع باريس) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١٣ : ١٥٩) ، وشذرات الذهب (٥ : ٢٠٩) .

وقد وقفنا على شعر فى ذمها ، وآخر فى مدحها نقلهما ابن الفوطى بقوله :

« وفيها (أى فى سنة ٦٧٥ هـ = ١٢٧٦ م)، توفى شمس الدين محمد بن عبدالله الهاشمى الكوفى الواعظ ببغداد ، وكان أديبا فاضلا عالما شاعرا .... وله يذم حمام المستنصرية بأنه بارد :

ولـــو ان أيـــوب فى عصـــرنا ... وقـــد مســـه بـالاذى المـــارد
لجـــاء الينـــا فحمـــامنـــا ... شـــــراب ومغتســـل بـــارد

فناقضه كمال الدين الابرى فقال :

أرى مـــاء حمـــــامكم كالحمـــ ... ـــيم تعانى منه عنـــاء وبوســـى
وعهدى بكم تسمطـون الجـدى ... فمـــا بالكم تسمطون الـرؤوسـا

وسبب التقصير ، ان المستنصر غضب عند سماع الاولى ، فاعتذر اليه بالثانية » (٤١) .

٨ — البيمارستان

البيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) ، لفظة فارسية مركبة من كلمتين : « بيمار » بمعنى مريض ، و « ستان » بمعنى محل (٤٢) . فهى اذا « دار المرضى » ، أو ما يطلق عليه اليوم لفظة « مستشفى » . وفى بعض المراجع القديمة وردت « المرستان » اختصارا للبيمارستان .

لم يفت مؤسس المستنصرية ، أن يقيم فيها بيمارستانا ، يعالج فيه المرضى من أبناء هذه المدرسة .

ففى أخبار سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) ذكر ابن الفوطى انه « تكامل بناء الايوان الذى انشىء مقابل المدرسة المستنصرية ، وعمل تحتها صفة يجلس فيه الطبيب ، وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فيداويهم » (٤٣) .

وسيأتى فى الكلام على « شروط المدرسة » قول الصفدى نقلا عن ابن الساعى ، وهذا نصه :

« و (شرط) أن يكون بها طبيب حاذق يشغل عشرة أنفس بعلم الطب » .

وقد أفاض ابن الفوطى بذكر هذا الشرط ، فقال فى تلخيص شروط المدرسة :

« ... وشرط أن يرتب بها طبيب حاذق مسلم ، وعشرة أنفس من المسلمين يشتغلون بعلم

---

(٤١) الحوادث الجامعة (ص ٣٩٠ — ٣٩١) .

(٤٢) الالفاظ الفارسية المعربة لادى شير (بيروت ١٩٠٨ : ص ٣٣ و ١٤٥) . وتاريخ البيمارستانات فى الاسلام للدكتور أحمد عيسى بك (دمشق ١٩٣٩ : ص ٤) . وقد وردت البيمارستانات فى معاجم اللغة فى مادة « م ر س ».

(٤٣) الحوادث الجامعة (ص ٨٢) وفى شذرات الذهب (٥ : ٢٠٩) اشارة الى «مارستان المستنصرية»

الطب ، ويوصل اليهم ما للمقدم ذكرهم (٤٤) ، وأن يكون الطبيب يطب من يعرض له مرض من أرباب هذا الوقف ، ويعطى المريض ما يوصف له من ادوية واشربة وغير ذلك » (٤٥) .

وذكر ابن العبرى ، ان طبيب المستنصرية كان « يتردد الى مرضاهـا فى بكـرة كـل يـوم يفتقدهم » (٤٦) .

والذين اشتغلوا فى هذا البيمارستان ، أو عنوا بتدريس الطب للطلاب ، قد تناثرت أخبـارهم هنا وهناك . وممن انتهى الينا ذكره من أطباء المستنصرية :

المبارك بن المبارك بن عمر الاوانى أبو منصور المنعوت بالشمس ، المعروف بابن الصباغ ، المتوفى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) . قال بحقه من ترجمه انه « كان عالما بالطب ماهرا فى صناعته ، له فيه تصانيف ، وكان ناهز المائة ونيف عليها ، قاله ابن الفوطى ، وكان ممتعا بسمعه وبصره » (٤٧) . وجاء فى الحوادث الجامعة انه بلغ من العمر مائة وست سنين (٤٨) .

وقد ذكر الرحالة البرتغالى بدرو تيكسيرا ، فى سنة ١٦٠٤ م ، « انه كان لا يزال يرى فى بغداد أخربة مبان لطيفة من العصور الفارسية (كذا) ، كالجامع المسمى بجامع الخليفة ، وغيره مما يطل على النهر ، منها مدرسة كانت مستشفى » (٤٩) .

وعلق العلامة كريزول على قول الرحالة ، ان المدرسة المشار اليها فى آخر العبارة انما هى « المدرسة المستنصرية » التى فى الجانب الشرقى من بغداد ، فقد كانت تحتوى على مستشفى (٥٠) .

٩ — الصيدلية

مر بنا آنفا ذكر « بيمارستان » المستنصرية ، والآن نقول انه لا يمكن أن يكون فى هـذه المدرسة بيمارستان ، ما لم يعضده « صيدلية » تحوى أنواع الادوية وضروب العقاقير التى تتخذ فى

(٤٤) أى أن يعطى لهم من الجرايات مثل ما يعطى غيرهم من أرباب هذه المدرسة .

(٤٥) الحوادث الجامعة (ص ٥٩) . انظر أيضا البداية والنهاية (١٣ : ١٣٩ و ١٥٩) .

(٤٦) تاريخ مختصر الدول (ص ٤٢٥) .

(٤٧) منتخب المختار (ص ١٦٤ الرقم ١٣٩) .

(٤٨) الحوادث الجامعة (ص ٤٤٥) .

(٤٩) *The Travels of PedroTeixeira*. Translated by W. F. Sinclair and D. Ferguson. (Hakluyt Society, London, 1902; p. 64).

(٥٠) Creswell (K. A. C.); *Early Muslim Architecture* (Vol. II, Oxford, 1940; p. 35).

معالجة المرضى ومؤاساتهم . وقد نقل الى هذه الصيدلية المعاجين والاكحال والاشربة وغير ذلك من مستلزمات العلاج . وفي شرط الواقف اشارة صريحة الى « الاشربة والادوية » (٥١) التي تعطى للمرضى من أرباب هذه المدرسة .

١٠ً — المخزن

أشار اليه ابن الفوطي اشارة واحدة ، في حوادث سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) بقوله ان فيها « فتح باب مخزن المدرسة المستنصرية ، المقابل لباب سوق المدرسة ، وأخذ منه نحو أربعمائة رطل شمعا معمولا ، وحدود ثلثمائة رطل سكرا ، وسبلغ ثلثمائة دينار ، وثلاثون مصمتا (٥٢) طبرية . وقيل ان جوقة الرندى (٥٣) فعلوا ذلك » (٥٤) .

وكفى بهذا الخبر بيانا بما كان يكنه هذا المخزن من صنوف المال ، التي ذكر منها ابن الفوطي في خبر هذه الجريمة القديمة طرفا منها . فما قولك بجميع ما كان يضمه ؟ انه كان ولا شك يحوي شيئا كثيرا من الورق والاقلام والحبر ، والزيت والمصابيح ، والصابون ، والملابس ، والفرش ومؤونة الطعام ، وأدوات الاكل وغير ذلك من المواد التي لا تحصى كثرة مما تستلزمه هذه المدرسة الداخلية الكبيرة وتقتضيه ادارة شؤونها .

وذكر غيره من المؤرخين ان في المستنصرية « مخزنا فيه كل ما يحتاج اليه من أنواع ما يطبخ من الاطعمة » (٥٥) .

١١ً — الدار المجاورة

معظم هذه الدار لا أثر له اليوم . وقد قال ابن الساعي البغدادي بحقها انها « مجاورة لهذه المدرسة ، في الحد الاعلى منها ، لم ير مثلها أحد ، ولا لادراك وصفها أمد » (٥٦) .

ففي قوله انها « في الحد الاعلى منها » ، دليل قاطع على انها كانت في شمالي المستنصرية .

---

(٥١) قال ابن العبري (تاريخ مختصر الدول . ص ٤٢٥) ان في المستنصرية ، « مخزنا آخر فيه انوع الاشربة والادوية » . وما هذا المخزن بالحقيقة الا صيدلية المدرسة .

(٥٢) أي ثيابا مصمتة . والثوب المصمت هو الذي لا يخالط لونه لون .

(٥٣) هو من أولاد المماليك الاشرار (الناشر) .

(٥٤) الحوادث الجامعة (ص ٢١٣) .

(٥٥) تاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٤٢٥) .

(٥٦) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٤ (١٩٢٤) ص ٤٣) .

ان هذه الدار قد ضاعت بادخالها فى بعض الاسواق التى تجاور المستنصرية من جهتهـــا الشمالية • ولا يرى منها اليوم سوى « ايوان » فائق الزخـرفـة (اللوح ٤ أ ـ ب ، واللوح ٥ ، واللوح ٦ ـ أ) ، كان حتى سنة ١٩٣٤ حانوتا لخباز ، ثم حانوتا لاسكاف ، وهو على ذلك الى يومنا هذا ولقد فصلنا القول فى هذا الايوان ، فى موضوع « أواوين » المستنصرية كما نوهنا بذكر الدار وافتتاحها فى الفصل الخاص بـ « افتتاح المدرسة » •

١٢ ـ دار الحديث

هى من جملة مشتملات هذه المدرسة ، وقد صرح بعض المؤرخين بذكرها فى كلامهم على شروط المدرسة • فقد شرط المستنصر أن « يكون فى دار الحديث التى بها ، شيخ عالى الاسناد ، وقارئان ، وعشرة أنفس يشتغلون بعلم الحديث النبوى ، وأن يقـرأ الحـديث فى كل يوم سبت واثنين وخميس من كل اسبوع • وشرط لهم الجراية والمشاهرة والتعهد اسوة بالفقهاء » (٥٧) •

وفى هذا الخبر اشارة طريفة الى ما كان من أمر توزيع الدروس بين أيام الاسبوع •

وأورد ابن الساعى خبرا بصدد هذه الدار ، يختلف عما نقله ابن الفوطى ، ونحن نذكره هنا لفائدته • قال فيما شرطه المستنصر : « أن يكون فى دار الحديث النبوى شيخ عالى الاسناد يشتغل بعلم الحديث وقارىء وطلبة • ويكون للشيخ المستمع فى كل يوم ستة أرطال خبزا ورطلان لحما ، وفى كل شهر ثلاثة دنانير • وللمشتغلين لكل واحد منهما فى كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طبيخا وفى كل شهر ديناران وعشرة قراريط ، وللقارىء فى كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طبيخا وكل شهر ثلاثة دنانير ، وللطلبة اسوة الايتـام الذين يتلقـون القـرآن فى الخبز والغرف والمشاهرة » (٥٨) •

١٣ ـ دار القرآن

وشأن هذه الدار شأن دار الحديث التى مر بنا ذكرها • فقد شرط المستنصر « أن يكون فى دار القرآن المجيد شيخ يلقن القرآن ، وثلاثون صبيا أيتاما ، ومعيد يحفظ الثلاثين • ويكون للشيخ كل يوم سبعة أرطال خبزا وغرفان طبيخا ، وفى الشهر ثلاثة دنانير • وللمعيد فى كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طبيخا ، وفى كل شهر دينار وعشرون قيراطا • وللصبيان ، لكل صبى

(٥٧) الحوادث الجامعة (ص ٥٨) •

(٥٨) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق (٤ (١٩٢٤) ص ٤٢) •

في كل يوم ثلاثة أرطال خبزا وغرف طبيخا ، وكل شهر ثلاثة عشر قيراطا وحبة » (٥٩) .

وذكر عبدالرحمن الاربلي أن « الى جانب هذه المدرسة دارا برسم تلقين القرآن المجيد » (٦٠).

وقال ابن الفوطي في خبر هذه الدار ، ان المستنصر « شرط أن يكون في الدار المتصلة بالمدرسة ، ثلاثون صبيا أيتاما يتلقنون القرآن المجيد من مقرىء متقن صالح ، يحفظهم معيد ، ولهم من الجراية والمشاهرة والتعهد ما للمشتغلين بعلم الحديث » (٦١) .

ففي هذا الخبر الاخير ، اشارة مفيدة الى أن « دار القرآن » لم تكن من ضمن بناية المستنصرية ، بل انها « متصلة بالمدرسة » . فلعل تلقين القرآن كان يجري في « الدار المجاورة » وعند ذاك يتاح لنا اعتداد « الدار المجاورة » و « دار القرآن » دارا واحدة .

١٤ — المطبخ :

كان في المستنصرية « مطبخ » ضاعت معالمه . ولما زار بغداد الرحالة الالماني الشهير نيبهر (Carsten Niebuhr) سنة ١١٤٦هـ (١٧٥٠م)، وجد هذا المطبخ بينا ظاهرا ، الا انه كان متخذا دارا للمكس (٦٢) .

١٥ — البستان :

ذكر ابن العبري في تاريخه ، ان المستنصر « من شدة غرامه بمدرسته المعروفة بالمستنصرية ، أعمر لصقها بستانا خاصا به . فقل ما يمضي يوم الا ويركب في السيارة (٦٣) ويأتي البستان يتنزه فيه ويقر بمن شباك مفتح في ايوان المدرسة ينظر الى البستان وعليه ستر . فيجلس وراء الستر وينظر الى المدرسة ويشاهد أحوالها وأحوال الفقهاء ويشرف عليهم ويتفقد أحوالهم » (٦٤) .

فلعل هذا البستان كان في « الرصيف » الحالي ، والا فان هذا الخبر يحتاج الى تحقيق بالنظر الى خطط بغداد .

---

(٥٩) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٤ ، ١٩٢٤ » ص ٤١ — ٤٢) .

(٦٠) خلاصة الذهب المسبوك (ص ٢١٢) .

(٦١) الحوادث الجامعة (٥٨ — ٥٩) .

(٦٢) Niebhur (C.); *Voyage en Arabie* (Vol. II, Amsterdam, 1780; p. 241).

(٦٣) كذا ما في المطبوع . والصواب : الشبارة ، وقد مر بنا تفسير معناها .

(٦٤) تاريخ مختصر الدول (ص ٤٤٢) .

٩ — خزانة الكتب

اولا — انشاء الخزانة :

كان المستنصر ، على ما وصفه به المؤرخون « من أول أمره ومبدأ عمره متشاغلا بالعلوم الدينية والادبية ، منعكفا على نقل الكتب ؛ حريصا على ذلك مواظبا عليه ، حسن الخط ، صحيح الضبط . ومن محبته للعلوم أنشأ خزانة الكتب بشريف حضرته ومقدس سترته ، جمع فيها من أنواع العلوم على اختلافها وتباينها وائتلافها ، بالاصول المضبوطة والخطوط المنسوبة ، وما جاوز حد الكثرة » (٦٥) .

وقد أشار بعض هؤلاء المؤرخين ، الى أن المستنصر ، بعد أن تم تشييد مدرسته ، وجرى افتتاحها بالوجه الذى وصفناه فى موطن آخر من هذا البحث ، « نقل اليها فى هذا اليوم من الربعات الشريفة ، والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والادبية ما حمله مائة وستون حملا (٦٦) ، وجعلت فى خزانة الكتب . وتقدم الى الشيخ عبدالعزيز (ابن دلف الخازن) شيخ رباط الحريم بالحضور بالمدرسة واثبات الكتب واعتبارها ، والى ولده العدل ضياء الدين أحمد ، الخازن بخزانة كتب الخليفة التى فى داره أيضا ، فحضر واعتبرها ورتبها أحسن ترتيب ، مفصلا لفنونها ، ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها »(٦٧) وكنا ذكرنا هذا وأعدنا ذكره للترتيب والتوكيد .

ولمح ابن كثير الى هذه الخزانة بقوله ان المستنصر « وقف فيها كتبا نفيسة ليس فى الدنيا لها نظير » (٦٨) .

فهذه الكتب الكثيرة التى جيء بها فى ذلك اليوم المشهود ، انما نقلت من خزانة المستنصر الخاصة . فما أعظمها هبة !

وأما عدد مجلدات هذه الخزانة الحافلة ، فقد نقل ابن عنبة العلوى ، ان المستنصر « أودع

---

(٦٥) خلاصة الذهب المسبوك (ص ٢١١ — ٢١٢) .

(٦٦) فى تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص ٣٠٦) ان ما نقل الى خزانة المستنصرية « مائة وستون حملا من الكتب النفيسة » .

(٦٧) الحوادث الجامعة (ص ٥٤) .

(٦٨) البداية والنهاية (١٣ : ١٥٩) .

خزانته فى المستنصرية ثمانين الف مجلد » ، ثم زاد على ذلك قوله « والظاهر انه لم يبق منها شيء ، والله الباقى » (٦٩) .

حدث هذا ، قبل زمان ابن عنبة المذكور وقد توفى سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) !

وفى رواية عبدالرحمن الاربلى ، نقلا عن تاريخ ابن الساعى فى بنى العباس ، ان المستنصر « جعل فيها (أى فى المستنصرية) خزانة الكتب،ونقل اليها من الربعات الشريفة والاصول ، سوى ما نقل اليها بعد ذلك » (٧٠) .

ففى هذا الكلام دليل على أن كتب الخزانة كانت فى تزايد وتكاثر من بعد افتتاح المدرسة .

ثانياً — موظفو الخزانة :

كان فى هذه الخزانة غير واحد من الموظفين ، وهم فى الجملة على ثلاثة أصناف :

أولا : الخازن .

ثانيا : المشرف .

ثالثا : المناول .

ومما شرطه المستنصر لمدرسته ، « أن يكون لخازن الكتب فى كل يوم عشرة أرطال خبزا ، وأربعة لحما ، وفى كل شهر عشرة دنانير .

« وأن يكون للمشرف على هذا الخازن فى كل يوم خمسة أرطال خبزا ، ورطلان لحما ، وفى كل شهر ثلاثة دنانير .

« وأن يكون للمناول فى هذه الخزانة فى كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طبيخا ، وفى كل شهر دينارا » (٧١) .

ثالثاً — بعض اخبار هذه الخزانة :

فى بعض التواريخ شيء من أخبار هذه الخزانة . من ذلك ما ذكره ابن الفوطى ، ان الخليفة المستعصم « قصد المدرسة المستنصرية يوم الجمعة سابع شعبان (سنة ٦٤٠ هـ = ١٢٤٢ م) ومعه الشيخ شمس الدين على بن النيار ، واعتبر خزانة الكتب التى بها ، وانكر عدم ترتيبها ، ووكل

(٦٩) عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب (ص ١٨٢ طبعة بومبى) .

(٧٠) خلاصة الذهب المسبوك (ص ٢١٢) .

(٧١) انظر الفصل المعنون « شروط المستنصرية » من هذا البحث .

بالنواب يومين ، ثم أفرج عنهم » (٧٢) .

فزيارة المستعصم للخزانة ، كانت بعد تبوئه الخلافة بنحو من شهرين .

ومن طريف ما ورد من أخبارها ، أن في سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) : « أنهى خازن المدرسة المستنصرية : انه شاهد ختم الخزانة متغيرا والقفل بحاله ، فاعتبروا ما فيها من الرهون والعين ، فشذ منها شيء ، ومن المال ثلثمائة دينار . فأنهى ذلك الى الخليفة ، فأمر بالزام الفقهاء والحاشية برمي تراب (٧٣) ، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلم يجدوا شيئا ، فتقدم بتقسيط ذلك على البواب بالخـزانـة والفراشين على قدر أحوالهم ، فاستوفى ذلك منهم ، ورتب عوضهم » (٧٤) .

يستخلص من هذا الخبر النفيس ، ان الخزانة كانت تقفل وتختم ، والظاهر انها كانت تضم في ما تضم دراهم ورهونا تؤخذ من الناس في مقابل اعارتهم بعض كتبها ، وان عين الخليفة ـ وهو يوم ذاك المستعصم ـ كانت ساهرة على حفظ مصالح هذه الخزانة ، يقظة على سلامتها .

وأورد ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٩٦ (٧٥) هـ (١٢٩٦ م) ، ان السلطـان غازان « دخـل المدرسة المستنصرية من الدار المجاورة لها ... وكان المدرسـون والفقهـاء قد جلسـوا على عادتهم والربعات الشريفة في ايديهم ... فدخل خزانة الكتب ولمحها (٧٦) » .

رابعاً — من عرف من موظفي خزانة الخزانة :

لبثت المستنصرية دهرا طويلا تفخر بهـذه الخزانة الحافلة التي تضم نفائس الـكتب وأمهاتها . وقد وقفنا على تراجم طائفـة من خزنتها والمشرفين عليها والمناولين فيها . وسنذكر شيئا عن بعضهم ، بحسب سياقة سني وفياتهم .

١ — الخزنة :

أ ـ الشيخ عبدالعزيز بن دلف بن أبي طالب أبو محمد البغدادي الناسخ : شيخ رباط الحريم ،

---

(٧٢) الحوادث الجامعة (ص ١٧٠ ـ ١٧١) .

(٧٣) جاء في حاشية المطبوع قول الناشر الدكتور مصطفى جواد : « أي رمى كل واحـد كومـة من التراب ، فالسارق يدس السرقة في الكومة فلا يعرف . وهذا كالمفاضلة عند العرب » .

(٧٤) الحوادث الجامعة (ص ٢٢٣) .

(٧٥) في رواية هذا التاريخ اختلاف : ففي الفخري لابن الطقطقي (ص ٢٢) سنة ٦٩٨ هـ . وفي نكت الهميان في نكت العميان للصفدي (ص ٢٠٦) سنة ٦٩٥ هـ . ويقول الدكتور مصطفى جواد ناشر كتاب الحوادث الجامعة ، ان الصحيح ما في أعلاه ، لان ابن الفوطي كان اذ ذاك قيم خزانة الكتب بالمستنصرية .

(٧٦) الحوادث الجامعة (ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣) .

فى أيام المستنصر • ذكر ابن الفوطى ، انه بعد أن نقلت الكتب الى خزانة المستنصرية ، تقدم نصير الدين ابن الناقد نائب الوزارة ، الى الشيخ عبد العزيز « بالحضور بالمدرسة واثبات الكتب واعتبارها » (٧٧) • فهو فى طليعة المشتغلين بهذه الخزانة (٧٨) •

ب ـ العدل ضياء الدين احمد ابن الشيخ عبدالعزيز المتقدم ذكره : كان الخازن بخزانة كتب الخليفة التى فى داره • ولما فتحت المدرسة المستنصرية ونقلت الكتب الى خزانتها ، تقدم اليه نصيرالدين ابن الناقد نائب الوزارة أن يحضر اليها ، أى الى الخزانة « فحضر ، واعتبرها ، ورتبها أحسن ترتيب مفصلا لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها » (٧٩) •

ج ـ الشمس على بن الكتبى : كان اول خازن ثابت فى خزانة المستنصرية • أشار ابن الفوطى (٨٠) الى انه نال خلعة فى حفلة افتتاح المدرسة •

د ـ ابن الساعى (٨١) وهو ابو طالب على بن أنجب تاج الدين البغدادى ، المتوفى سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ ـ ٦ م) • كان خازن كتب المستنصرية • وله التآليف المشهورة فى تاريخ العراق خاصة • انتهى الينا من مؤلفاته :

---

(٧٧) الحوادث الجامعة (ص ٥٤) وفى كتاب « اصول التاريخ والادب » من مجموعات مصطفى جواد الخطية ان عبدالعزيز هذا كان مقرئا وتولى خزن الكتب التى وقفها الامام الناصر لدين الله فى تربة زوجته سلجوقى خاتون بباب البصرة من الجانب الغربى فى محلة الخضر اليباس الحالية وخزن الكتب الموقوفة بمسجد الشريف على بن أحمد الزيدى بدرب دينار من الجانب الشرقى ثم تولى مشيخة رباط الحريم وتوفى فى صيف سنة ٦٣٧ هـ (ج ٦ ص ٦٩) و (ج ٩ ص ٩٦) و (ج ٢١ ص ٥٢ ، ١٥٦) (ج ٣٠ ب ص ٨٠) (ج ٢٧ ص ٢٠٧ ، ٢٠٩) (ج ٣٢ ص ٤٣) •

(٧٨) ترجمه الدكتور مصطفى جواد ترجمة حسنة مستندا فيها الى المراجع المخطوطة والمطبوعة ، فى مجلة المعلم الجديد (٦ (١٩٤٠) ص ١٠٨ ـ ١١٠) فى مقال المعنون « أشهر عالمة عراقية : فخر النساء شهدة الكاتبة العالمة » •

وللشيخ عبدالعزيز هذا ترجمة مختصرة فى « غاية النهاية فى طبقات القراء » لشمس الدين الجزرى (١ : ٣٩٣ الرقم ١٦٧٤ طبعة برجشتراسر فى القاهرة ١٩٣٣) •

(٧٩) الحوادث الجامعة (ص ٥٤) وفى اصول التاريخ والادب انه توفى فى سنة ٦٤٠ هـ « ج ٢٧ ص ٤١٩ » •

(٨٠) الحوادث الجامعة (ص ٥٦) •

(٨١) راجع ترجمته فى : الحوادث الجامعة (ص ٣٨٦) ، وتذكرة الحفاظ للذهبى (٤ : ٢٥٠) ، وشذرات الذهب (٥ : ٣٤٣ ـ ٣٤٤) ، وخصوصا مقدمة الجامع المختصر (صفحة ط ـ ذ) وهى للدكتور مصطفى جواد ، وتاريخ العراق بين احتلالين للمحامى عباس العزاوى (١ : ٨٢٣ ـ ٨٢٤) •

١ ـ أخبار الادباء : منه نسخة فريدة كاملة فى خمسة مجلدات ، فى خزانة الحاج قدور الحلبى بحلب (٨٢) ، مؤرخة فى سنة ٨٨٥ ـ ٨٨٦ هـ (١٤٨٠-١٤٨١ م) . فهو من نفائس الكتب الخطية .

٢ ـ الجزء التاسع من « الجامع المختصر » . عنى بنشره الدكتور مصطفى جواد (بغداد ١٩٣٤) . وهو يتناول حوادث السنين ٥٩٥ ـ ٦٠٦ هـ .

٣ ـ وقد طبع له « مختصر أخبار الخلفاء » (بولاق ١٣٠٩ هـ) . والمرجح عند بعض المحققين انه ليس له .

هـ ـ ابن الفوطى (٨٣) : وهو عبدالرزاق بن أحمد بن محمد البغدادى . ولد سنة ٦٤٢ هـ ، وأسر فى كائنة بغداد ، فاتصل بالنصير الطوسى فخدمه . وباشر كتب خزانة الرصد بمراغة ، وعدتها على ما نقل اربعمائة الف مجلد . واطلع على نفائس الكتب ، فعمل تاريخا حافلا جدا ، ثم اختصره فى آخر سماه مجمع الآداب ومعجم الاسماء على الالقاب فى خمسين مجلدا . وقد انتهى الينا المجلد الرابع من مختصر مجمع الآداب ، وهو لم يطبع (٨٤) . وله درر الاصداف فى بحور الاوصاف والدرر الناصعة فى شعراء المائة السابعة . وهذه كلها قد ضاعت . ومن مؤلفاته الحوادث الجامعة وهو من أهم مراجعنا فى هذا البحث ، وقد طبع فى بغداد كما ذكرنا . وولى ابن الفوطى خزن كتب المستنصرية ومات سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٢ ـ المشرفون

أ ـ العماد على بن الدباس : كان أول مشرف فى خزانة المستنصرية ، ذكره ابن الفوطى (٨٥) فى كلامه على فتح هذه المدرسة ، وقال انه نال خلعة حينذاك .

---

(٨٢) P. Sbath; *Al Fihris* (Catalogue de Manuscrits Arabes). *Supplément.* (Le Caire, 1940; p. 38, No. 2775).

(٨٣) ترجمته فى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى (٢ : ٣٦٤ ـ ٣٦٥ الرقم ٢٤١٤) ومقدمة ناشر الحوادث الجامعة (ص : ن ـ ش) ، ورسالة الاستاذ محمد رضا الشبيبى فى « ابن الفوطى » (بغداد ١٩٤٠ ؛ ١٦ ص) ، وتاريخ العراق بين احتلالين (١ : ٤٨١ ـ ٤٨٢) .

(٨٤) نسخته بخط المؤلف فى دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وعنها صورت نسخة للمكتبة العامة ببغداد، واخرى عنها فى خزانة المتحف العراقى . وانتسخ الدكتور مصطفى جواد نسخة لنفسه عن نسخة المكتبة العامة .

(٨٥) الحوادث الجامعة (ص ٥٦) .

ب ـ محيي الدين ابن العاقولي ([٨٦]) : درس في المستنصرية ، وانتهت اليه رئاسة العلم والتدريس ببغداد ، مات ٧٦٨ هـ (١٣٦٦ م) . وكان وقتا ما مشرفا على خزانة كتب المستنصرية .

٣ـ المناولون :

أ ـ الجمال ابراهيم بن حذيفة : كان أول متناول في خزانة المستنصرية . وقد ذكره ابن الفوطي ([٨٧]) في كلامه على فتح هذه المدرسة ، وأشار الى نيله الخلعة حينذاك .

ب ـ محمد بن سعيد بن محمد بن أبي النجم الحدادي : كان صاحب ابن الساعي (المتوفى سنة ٦٧٤ هـ) ووصيه . وهو من أقدم المناولين في هذه الخزانة ([٨٨]) .

ج ـ عبدالرحيم بن محمد : هو ابن محمد السابق ذكره . كان كأبيه مناولا بخزانة الكتب بالمستنصرية ، وله بها معرفة تامة ([٨٩]) . مات ببغداد سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) .

خامساً — مصير هذه الخزانة :

بقيت هذه المدرسة مدة طويلة حافلة بكتبها التي تعد بعشرات الآلاف ، زاخرة بالمطالعين والمستفيدين من نفائس مكنوناتها . ولا غرابة في أن تتسع لهذا المقدار ، بعد أن رأينا ما كان من عناية المستنصر بها ، ثم المستعصم من بعده ، تلك العناية التي شهد بها المؤرخون .

ولكن نكبات مختلفة انتابتها فزعزعت أركانها . وكان في طليعة تلك الرزايا ، حادثة استيلاء المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وتدميرهم معالم العلم والعمران فيها .

ويؤخذ مما ذكره ابن شاكر الكتبي والصفدي في ترجمة نصير الدين الطوسي ، ان جانبا كبيرا من خزانة هذه المدرسة نقل من بغداد الى مراغة ، عند استيلاء المغول على العراق ، فان نصير الدين « كان ذا حرمة وافرة ومنزلة عالية عند هولاكو ، وكان يطيعه فيما يشير به عليه .... وابتنى بمراغة قبة ورصدا عظيما ، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الارجاء وملأها من الكتب التي

---

(٨٦) ترجمته في : منتخب المختار (ص ١٨٥ ـ ١٨٦ الرقم ٢٥٨) ، والدرر الكامنة (٣ : ٤٨٣ الرقم ١٢٩٣) .

(٨٧) الحوادث الجامعة (ص ٥٦) .

(٨٨) الدرر الكامنة (٢ : ٣٦٠ الرقم ٢٤٠٥) .

(٨٩) الدرر الكامنة (٢ : ٣٦٠ الرقم ٢٤٠٥) .

نهبت من بغداد والشام والجزيرة ، حتى تجمع فيها زيادة على اربعمائة الف مجلد » (٩٠)

ولقد مر بنا في صدر هذا الفصل ، قول ابن عنبة المتوفى سنة ٨٢٩ هـ بصدد هذه الخزانة، وهذا اعادة بعضه : « ... والظاهر انه لم يبق منها شيء والله الباقي » (٩١) .

فخزانة المستنصرية ، كانت منذ بداية المائة التاسعة للهجرة مندثرة ، قد تشتت كتبها بالحرق والنهب والتمزيق والتغريق . والذي سلم منها لا يعلم اليوم مصيره ، ما خلا كتابا واحدا ، وهو نسخة من كتاب « ربيع الابرار » للزمخشري ، هي اليوم في الخزانة الوطنية بباريس (٩٢) !

وقد ذكر ابن العبري خبرا طريفا يخص أحد كتب هذه الخزانة ، ننقله عنه في ما يلي ، وان كنا نجهل أين صار ذلك الكتاب ، قال :

« ومما يستدل به على علو همة الحكيم عيسى بن القسيس ، انه نسخ كتاب القانون (٩٣) بخطه في شبيبته ، ثم خرجت النسخة عن ملكه بحكم شرعي وحصلت في خزانة المدرسة المستنصرية . فلما أسن ، طلب النسخة وقابلها وصححها وأعادها الى مكانها ، فنسبه باغضوه الى فضول ومحبوه الى مثوبة يتوخاها . فقال : كلا الفريقين مخطىء ، وانما فعلت ذلك لئلا يزري على بعد موتي » (٩٤) .

وأشار المقريزي الى أحد كتب هذه الخزانة ، يعرف بكتاب الياسه ، وهو يحتوي على القوانين التي وضعها جنكزخان لقومه ، وضمنها النواهي والزواجر ، قال : « واخبرني العبد الصالح الداعي الى الله تعالى أبو هاشم أحمد بن البرهان رحمه الله ، أنه رأى نسخة من الياسه بخزانة المدرسة

---

(٩٠) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (٢ : ١٤٩ بولاق ١٢٩٩ هـ) والوافي بالوفيات للصفدي (١ : ١٧٩) .

(٩١) عمدة الطالب (ص ١٨٢) .

(٩٢) راجع :

Blochet; *Catalogue de la Collection de Manuscrits Orientaux Arabes, Persans et Turcs formée par M. Charles Schefer et acquise par l'État* (Paris, 1900, p. 37-38; No. 5685).

Blochet; *Catalogue des Manuscrits Arabes des Nouvelles Acquisitions* (1884-1924). (Paris, 1924, p. 155; No. 5985).

(٩٣) يريد به « القانون في الطب » لابن سينا .

(٩٤) تاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٤٧٩) .

المستنصرية ببغداد » (٩٥) .

وذكر الحاج خليفة ، أن نسخة من « تاريخ بغداد » لابى بكر الخطيب البغدادى ، بخط المؤلف ، كانت فى وقف المستنصرية ، أربعة عشر مجلدا (٩٦) .

وقال ابن تغرى بردى فى كلامه على أبى بكر طه ابن ابراهيم بن احمد بن اسحق البخارى ثم البغدادى : له كتاب فى الادبيات نحو العشرين مجلدا ، يشتمل على شعر وترسل وحكايات وغير ذلك ، كان بخطه وقفا بالمستنصرية ، مات فى حدود سنة ٦٥٠ هـ تقريبا (٩٧) .

١٠ — ساعة المستنصرية

ومن عجيب ما خصت به هذه المدرسة ، الساعة المائية ، التى وصفها غير واحد من المؤرخين والشعراء ، فجاءت ، على ما وصفوها به ، من طرائف الآلات الروحانية التى ابتدعها الاقدمون .

قال ابن الفوطى ، فى أحداث سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) ، بصدد هذه الساعة ما هذا نصه :

« وفيها ، تكامل بناء الايوان الذى انشىء مقابل المدرسة المستنصرية ، وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فيداويهم . وبنى فى حائط هذه الصفة دائرة وصور فيها صورة الفلك وجعل فيها طاقات لطاف لها أبواب لطيفة ، وفى الدائرة بازان من ذهب فى طاستين من ذهب وراءهما بندقتان من شبه لا يدركهما الناظر . فعند مضى كل ساعة ينفتح فما البازين ويقع منهما البندقتان ، وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات ، والباب من ذهب فيصير حينئذ مفضضا ، واذا وقعت البندقتان فى الطاستين تذهبان الى مواضعهما ، ثم تطلع أقمار (٩٨) من ذهب فى سماء لازوردية فى ذلك الفلك . مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها . فاذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء فى دائرة القمر ، ثم يبتدىء فى الدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك أوقات الصلاة (٩٩) . ونظم الشعراء فى ذلك أشعارا ، منها قول

---

(٩٥) خطط المقريزى (٣ : ٣٥٨ مطبعة النيل ١٣٢٥ هـ) .

(٩٦) كشف الظنون (٢ : ١١٩ طبعة فلوجل) .

(٩٧) اصول التاريخ والادب للدكتور مصطفى جواد (١٦ : ١٧٤ مخطوط) .

(٩٨) فى خلاصة الذهب المسبوك : شموس ، وهو الصحيح وسنجىء بذلك وراجع الحوادث الجامعة (ص ٨٣)

(٩٩) وصف الرحالة الشهير ابن جبير (رحلته ؛ ص ٢٧٠ — ٢٧١ طبعة دى غويه) ساعة اخرى من هذا القبيل ، كانت فى الجامع الاموى بدمشق .

أبى الفرج عبدالرحمن بن الجوزى ، من أبيات مدح بها الخليفة ([١٠٠]) :

يا أيهـــا المنصـــور يا مالكا ... برأيه صعب الليـــالى يهـــون
شـــيدت لله ورضـــــوانه ... أشرف بنيان يروق العيـــــون
ايوان حسن وضعه ([١٠١]) مدهش ... يحـــار فى منظـــره النـاظرون
تهدى ([١٠٢]) الى الطـاعات ســاعاته ... الناس وبالنجم هم يهتـــــدون
صور فيـــه فلك دائر والشـــ ... ـمس تجرى ما لهـــا من سكون
دائـــــرة من لازورد حكت ... نقطة تبر فيـــه ســـر مصون
فتلك فى الشـــكل وهـــذى معـــا ... كمثل هاء ركبت وسط نون »([١٠٣])
فهى([١٠٤]) لاحيـاء العلى والنـــدى ... دائـرة مـركـزهـــا العـالمـون

وممن أجاد فى وصف هذه الساعة العجيبة ، عبدالرحمن الاربلى ، فقد قال :

« وبنيت لهـم (أى لطبيب المستنصـرية ولطلبته) صفة فاخرة مقابلة للمدرسة ، يجلس فيها فيقصده المرضى فيداويهم . وبنى فى حائط هذه الصفة دائرة عجيبة ، وصورتها صـورة الفلك ، وجعل فيها طاقات صغار لها أبواب ، كلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب الطاقات ، وهو مذهب نضار مفضضا ، ومضت ساعة من الزمان ، والبنـدقتـــان من شبه يقعـان من فم بازين من ذهب فى طاستين من ذهب ، ويذهبان الى مواضعهما . وتطلع شموس من ذهب فى سماء زرقاء فى ذلك الفلك ، ومع طلوع الشمس تدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها . فاذا غابت الشمس وجاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما مضت ساعة تكامل الضوء فى دائرة القمر ، ثم تبدو بالدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ([١٠٥]).

وممن أشار الى هذه الساعة ، زكرياء بن محمد بن محمود القزوينى ، المتوفى سنة ٦٨٢ هـ فقال : « وعلى باب المدرسة ايوان ركب فى صدره صندوق الساعات على وضع عجيب يعرف منـه أوقات الصلوات وانقضاء الساعات الزمانية نهارا وليلا » ([١٠٦]) . ثم أورد الابيات الشعرية الثمانية

(١٠٠) الابيات وردت أيضا فى آثار البلاد واخبار العباد للقزوينى (ص ٢١١ طبعة وستنفلد) .
(١٠١) فى آثار البلاد : وصفه .
(١٠٢) لم يرد هذا البيت فى الحوادث الجامعة ، وقد نقلناه من آثار البلاد .
(١٠٣) الحوادث الجامعة (ص ٨٢ ــ ٨٤) .
(١٠٤) هذا البيت أيضا نقلناه من آثار البلاد .
(١٠٥) خلاصة الذهب المسبوك (ص ٢١٢) .
(١٠٦) آثار البلاد (ص ٢١١) .

التى أثبتناها فى نص ابن الفوطى .

وقد نقل التقى الفاسى المكى ، فى ترجمة « أحمد بن على بن تغلب بن أبى الضياء البعلى الاصل ، البغدادى المولد والمنشأ ، المعروف بابن الساعاتى » ، ان أباه هو الذى عمل الساعات المشهورة على باب المستنصرية ببغداد (١٠٧) ، لانه كان مشتهرا بالهيأة والنجوم وعمل الساعات (١٠٨) .

وقد عين ابن الفوطى سنة ولادة وسنة وفاة هذا الرجل بقوله : « وفيها (أى سنة ٦٨٣ هـ = ١٢٨٤ م)توفى نور الدين على بن تغلب الساعاتى ، كان يتولى تدبير الساعات التى تجاه المستنصرية . كان مولده سنة احدى وستمائة (١٢٠٤ م) »(١٠٩) .

ان هذه الساعة التى تعد من بدائع الصناعة ونفائس الآثار ، لم يبق لها اليوم أثر ما . وقد عمدنا الى المراجع العربية القديمة المصورة ، علنا نعثر فيها على ما يهدينا الى حقيقة شكلها ، فوقفنا على صورة جميلة ، لساعة قديمة ، هى لكأنها ساعة المستنصرية فى صفتها التى نقلناها آنفا عن بعض المؤرخين .

هذه الصورة (انظر اللوح ٧ أ) ترى فى مخطوطة جليلة القدر ، محفوظة فى خزانة متحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن فى أميركة ، وعنوان المخطوطة :

« كتاب فى معرفة الحيل الهندسية » .

وقد يسمى هذا التأليف أيضا :

« الكتاب الجامع بين العلم والعمل ، النافع فى صناعة الحيل » .

وهو تأليف بديع الزمان أبى العز اسماعيل ابن الرزاز الجزرى ، صنفه سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) بأمر السلطان محمود بن محمد الارتقى ، الذى حكم ديار بكر من سنة ٥٩٧ الى ٦١٩ هـ (١٢٠٠-١٢٢٢ م) .

ولهذا الكتاب نسخة خطية ثانية فى خزانة أكسفرد .

---

(١٠٧) منتخب المختار (ص ٣٦) . وترجمه ابن قطلوبغا فى « تاج التراجم فى طبقات الحنفية » (ص ٧ ــ ٨ من نسختنا الخطية) .

(١٠٨) الفوائد البهية فى تراجم الحنفية (ص ٢٦) . وأنظر كشف الظنون (٥ : ٣٩٦ طبعة فلوجل) فى الكلام على كتاب « مجمع البحرين » لاحمد المذكور أعلاه .

(١٠٩) الحوادث الجامعة (ص ٤٤٤) .

لقد نشر نبذا من هذا الكتاب ، وبعضا من صوره ، أحد كبار الباحثين ، في رسالة له بالانكليزية (١١٠) ، وفي اللوح الاول من هذه الرسالة ، صورة الساعة المشار اليها ، وقد نقلناها عنه في بحثنا هذا . والجدير بالذكر ، هو أن هذه الساعة وساعة المستنصرية قريبتا عهد احداهما بالاخرى ، فكلتاهما صنعتا في النصف الاول من المائة السابعة للهجرة .

وكنا وقفنا على مقال للدكتور مصطفى جواد ، بعنوان « آثار بني العباس في العراق » (١١١)، في آخره صورة خيالية وضعها لساعة المستنصرية ، قال فيها : « أما ساعتها المائية العجيبة ، فقد استفرغت طاقتي في انتزاعها من ضمير التاريخ كلمات ، واحالة وصفها تصويرا يرسم تلك العظمة ويمثل تلك الصنعة » . وان صاحب المقال ، و الحق يقال قد قارب الحقيقة في تصويرها وتوضيحها (انظر اللوح ٧ ب) .

١١ — أوقافها

كان المستنصر بالله ، لبعد نظره ، ورغبة منه في اطالة بقاء هذه المدرسة ودوام عزها ، قد وقف عليها أوقافا كثيرة ، تكفل لها بالبقاء ، وترفه العيش لمن ينتسب اليها . فقد وقف عليها الدور والخانات والقرى والاراضي . قال الذهبي : ان قيمة ما وقف عليها يساوي ألف ألف دينار (١١٢) . وقد بلغ ارتفاع وقوف المستنصرية في العام نيفا وسبعين ألف مثقال من الذهب (١١٣) . وسرد الذهبي في تاريخه الكبير ، القرى والرباع الموقوفة عليها(١١٤) . وذكر ابن كثير ، ان المستنصر « وقف عليها أوقافا عظيمة ، حتى قيل ان ثمن التبن من غلات ريعها يكفي المدرسة وأهلها »(١١٥) ! فان صحت هذه الرواية ، أدركنا جسامة تلك الوقوف التي كانت تدر على هذه المؤسسة الثقافية أعظم الارتفاع وأوفره .

---

(١١٠) A. K. Coomaraswamy; *The Treatise of al-Jazari on Automata.* (Boston, 1924).

(١١١) مجلة الهلال (يونيو ١٩٣٣) ص١٠٥٧ــ١٠٦٤ ، الشكل ٦) .

(١١٢) دول الاسلام للذهبي (٢ : ١٠٣ طبع حيدر آباد) .

(١١٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي (٣٠٦) نقلا عن تاريخ الذهبي الكبير .

(١١٤) لم يطبع هذا التاريخ الموسوم بـ « تاريخ الاسلام » . أما المجلد الذي سرد فيه مؤلفه القرى والرباع الموقوفة على المستنصرية ، فلم نقف عليه لننقل منه هذا النص . وقد اكتفينا باشارة السيوطي نقلا عن الذهبي .

(١١٥) البداية والنهاية (١٣ : ١٥٩) .

وهذه الاموال المتحصلة من الوقوف المستغلة ، كانت تصرف فى وجوه المدرسة المختلفة : كخزانة الكتب ، ورواتب المدرسين ، ومعيشة الطلاب ، واجورالفراشين والخدم ، وأثاثالمدرسة، ونفقات الطعام ، وغير ذلك مما تتطلبه هذه المدرسة من ضروب الانفاق .

١٢ — كتابات المستنصرية

مما تحلت به بناية هذه المدرسة ، طائفة من الكتابات التذكارية ، سطرت فى بعض معالمها ، لتكون دليلا ناطقا على بعد همة المستنصر وحسن عنايته فى تشييد هذا الصرح العظيم .

والكتابات التى انتهت الينا ، كاملة أو مشوهة ، كانت ترى بالمدرسة فى المواضع الآتى ذكرها:

اولا — كتابة تعلو باب المدرسة ، أى فى الجهة الشرقية .

ثانيا — ثلاث كتابات ، احداها تعلو جبهة المدرسة النهرية ، والثانية الجبهة الجنوبية ، والثالثة الجبهة الشرقية التى فيها مدخل المدرسة .

ولعل هناك كتابات اخرى كانت تعلو بعض الجبهات أو الابواب أو غير ذلكمن أقسام المدرسة، ولكنذهبتبمرور الزمن وأصبحتأثرا بعد عين .

وسنورد فى ما يأتى ، نصوص كل ما أمكننا الوقوف عليه من هذه الكتابات .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الكتابة الاولى (١١٦)

كانت هذه الكتابة فوق باب المدرسة ، الشارع الآن على « سوق الهرج » . ثم اقتلعتها مديرية الآثار القديمة العامة من مكانها بعناية تامة ، ورممتها ، ووضعتها أولا فى احدى الحجر من دار الآثار العربية فى خان الامير مرجان ببغداد ، سنة ١٩٣٦ . وفى سنة ١٩٤٢ نقلتها من

(١١٦) ورد نص هذه الكتابة ، فى المراجع الآتية :

أ — مجلة المشرق (٥ (١٩٠٢) ص ٩٦٢) والمقال للسيد محمود شكرى الآلوسى .

ب — تاريخ مساجد بغداد للآلوسى (ص ٥٨) .

ج — Massignon (L.); *Mission en Mésopotamie*, 1907-1908. (Vol. II. le Caire, 1912; p. 44).

د — Viollet (H.); *L'Architecture Musulmane du* XIIe *Siècle en Irak*. (Extrait de Revue Archéologique, 1913; p. 7-8).

هـ — Sarre (Fr.) und Herzfeld (E.); *Archäologische Reise im Euphrat und Tigris—Gebiet*. (Vol. II, Berlin, 1920; p.164).

هناك الى بناية المتحف الاسلامي في القصر العباسي .

تتألف هذه الكتابة ، من ثمانية أسطر ، طول كل سطر ١٠ر٣ أمتار . والكتابة ذاتها ، على ما ترى في اللوح ٨ ناتئة ، مكتوبة بخط الثلث الكبير الجميل . ومما يلاحظ في أسطرها انهـا مؤلفة من ألواح الآجر المهندم المستطيل . وأرضية الاسطر مزدانة بزخارف نباتية محفورة حفرا دقيقا ينسجم هو والكتابة .

وفيما يلي السطر ، نص الكتابة مقروءا على الصورة الفتغرافية المنقولة عن الاصل :

« بسم (١١٧) الله الرحمن الرحيم . قد أنشأ هذا المحل رغبة في أن الله لا يضيع)

١ أجر من أحسن عملا ، وطلبا للفوز بجنات الفردوس

٢ (التي أعـ) ـدها للذين آمنو (ا وعملوا الصالحا) ت نزلا (١١٨)

٣ وأمر أن تجعل مدرسة للفقهاء ، على المذاهب الاربعة (١١٩)

= و — مجلة المعلمين (٢ (١٩٢٦) ص ٣٨٧ — ٣٨٨) في مقال « المستنصرية » للسيد طه الراوي .

ز — مختصر تاريخ بغداد لعلي ظريف الاعظمي (بغداد ١٩٢٦ ، ص ١١٦ — ١١٧) .

ح — لغة العرب (٥ (١٩٢٧) ص ٥٠٥ الحاشية ١) والكلام ليوسف غنيمة .

ط — المدرسة المستنصرية لناجي معروف (بغداد ١٩٣٥ ؛ ص ٦٦) .

ونقل ريموند القنصل الفرنسي في بغداد ، نص هذه الكتابة الى الفرنسية في مؤلفه :

Voyage aux Ruines de Babylon par M. J. C. Riche, Traduit et enrichi d'observations avec des notes explicatives par J. Raymond. (Paris, 1818; p. 218).

(١١٧) ما بين القوسين ( ) لا يرى اليوم ، وقد نقلناه عن الآلوسي وماسنيون .

(١١٨) قابل ذلك بما ورد في القرآن (سورة الكهف ، الآية ٣٠) : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » . والآية ١٠٨ : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » .

(١١٩) من الغريب ان هذا السطر سقط من قراءة الآلوسي .

٤ سيدنا ومولانا امام المسلمين ، وخليفة(١٢٠) رب الـ (ـه) ـالمين

٥ أبو جعفر المنصور (١٢١) المستنصر بالله أمير المؤمنين

٦ شيد (١٢٢) الله تعالى (١٢٣) معالم الدين بخلود سلطا (نـ) ـه ، وأحيا

٧ قلوب أهل (١٢٤) العلم بتضاعف (١٢٥) نعمه واحسانه (١٢٦) وذلك فى (١٢٧)

٨ سنة ثلثين وستماية ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآله » .

الكتابة الثانية (١٢٨)

لا أثر لهذه الكتابة آليوم . وقد قال الآلوسى ، وشايعه بعض من نقل عنه ، انها مما بقى الى اليوم (١٢٩) على جدار المدرسة المطل على دجلة . وعندنا انها كانت فى محل كتابة السلطان عبدالعزيز

---

(١٢٠) قرأها فيوله : وخليفتهم . وهذا خطأ .

(١٢١) هذه اللفظة سقطت فى قراءة الآلوسى .

(١٢٢) فى هرتسفلد : يشد . وهو تحريف .

(١٢٣) هذه اللفظة سقطت فى قراءة الآلوسى .

(١٢٤) ابتداء من السطر الخامس حتى هذه اللفظة ، ساقط من قراءة فيوله وغنيمة .

(١٢٥) فى هرتسفلد : بتصاعف . ولا وجه له .

(١٢٦) فى هرتسفلد : واعانته . وهو يخالف الاصل .

(١٢٧) عبارة « واحسانه وذلك فى » ، ساقطة فى قراءة فيوله وغنيمة .

(١٢٨) ورد نص هذه الكتابة فى :

أ ـ مساجد بغداد (ص ٨٦) .

ب ـ *Massignon* (II, 45).

ج ـ لغة العرب (٥ (١٩٢٧) ص ٤٠٦) والكلام لمحمود الملاح .

د ـ المدرسة المستنصرية لناجى معروف (ص ٦٥ـ٦٦) .

هـ ـ مجلة المعلمين (٢ (١٩٢٦) ص ٣٧٩) فى مقال « المستنصرية » للسيد طه الراوى . وقد نقل معظم هذا النص الى الانكليزية فى رحلة :

E. S. Stevens (E. S. Drower): *By Tigris and Euphrates* (London 1923, p. 63-64).

(١٢٩) قيل هذا القول ، مع ان كتاب تاريخ مساجد بغداد للآلوسى ، طبع سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧م) .

العثمانى ، التى سنذكرها فى الكتابة السابعة ، ولدينا أدلة على ذلك نشير اليها هناك . وفى ما يلى السطر نص هذه الكتابة الزائلة :

« ما شـاء الله كان . بسم الله الرحمن الرحيم . ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحـون . هذا ما أمر بعمله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ، الذى طبق البلاد احسانه وعدله ، وغمر العباد برده وفضله ، أبو جعفر المنصور المستنصر بالله ، قرن الله تعالى أوامره الشريفـة بالنجح واليسر ، وجنوده بالتأييد والنصر ، وجعل لايامه المخلدة جدا لا يكبو جواده ، ولآرائه الممجدة سعدا لا يخبو زناده ، فى عز تخضع له الاقـدار فيطيعه عواصيها ، وملك تخشع له الملوك فيملك نواصيها (١٣٠) ، وذلك فى سنة ثلاثين وستمائة ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وعترته وسلم تسليما » .

الكتابة الثالثة : (١٣١)

وفى الطبقة العليا من بناية المستنصرية ، كتابة تلاعبت بها يد الدهر فشوهتها . وقد كانت تمتـد بامتداد وجه المدرسة من جهة سوق الهرج ، قريبا من السطح .

وهذه الكتابة « مكونة بطريقة تختلف عن الطريقة المتبعة فى كتابة المدخل : فانها لم تحفر على سلسلة صفائح اعتيادية ، بل تكونت من ترتيب قطع كثيرة من الطابوق على شـكل كتابة كبيرة الابعاد . وأما المسافات الباقية بين خطوط الكتابة ، فقد حشيت بالطابوق والجص وسترت بصفائح آجرية نقش عليها زخارف هندسية » (١٣٢) .

والذى يمكن قراءته من هذه الكتابة (انظر اللوح ٩ : د ـ هـ واللوح ١٠ : أ ـ ب :

« (... الله من عباد (ه ؟) .. بانشائه ؟ طلبا للثـ) ـواب (١٣٣) الذى يعمل لمثله العاملون

---

(١٣٠) فى « المدرسة المستنصرية » لناجى معروف : نواحيها ، بالحاء المهملة . والصواب بالصاد المهملة كما فى أعلاه . وهو من السجع المتوازى « عواصيها » .

(١٣١) هذا النص ورد فى :

أ ـ *Viollet* (p. 5).

ب ـ Sarre u. Herzfeld (II, 163-164).

ج ـ لغة العرب (٥ (١٩٢٧) ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ الحاشية ١) .

د ـ رسالة « المدرسة المستنصرية » لناجى معروف (ص ٩٨) .

(١٣٢) دليل دار الآثار العربية فى خان مرجان ببغداد (بغداد ١٩٣٨ ! ص ٢١ واللوحة ١٤) .

(١٣٣) ما بين القوسين لا يقرأ فى الاصل المتبقى . وقد تقلناه من فيوله . قلت : فيه دليل على آيـة « انمـا يخشى الله من عباده العلماء » وكتابتها مألوفة عند السماء فى ابواب المدارس (مج) .

وتحريضا (١٣٤) على فضـ ٠٠٠٠ ـعلى هل (يـ) ستوى الذين (١٣٥) ٠٠٠٠٠ (المنصـور المستنصـ) ـر (١٣٦) بالله أمير المؤمنين ، أدام الله اعتصام الاسلام بحبله المتين » .

وهذه الكتابة ، نقلتها من هناك ، مديرية الآثار القديمة العراقية ، ووضعتها في خان مرجان سنة ١٩٣٦ (انظر الموح ٩ د ـ هـ واللوح ١٠ أ ـ ب) ثم نقلتها من هناك الى المتحف الاسلامي في القصر العباسي سنة ١٩٤٢ .

ويبدو لنا من الصور التي نشرها فيوله في الصفحة ٦ من مقالته التي أشرنا اليها ، ان جوانب من هذه الكتابة ، كانت لا تزال مرئية في سنة ١٩١٣ ، ولكنها في سنة ١٩٣٦ كانت مختفية .

الكتابة الرابعة (١٣٧)

أصبحت هذه الكتابة ، بعـد عبث العابثين بالمستنصرية ، ضمن « قهوة المميز » عنـد رأس الجسر . وهي على جدار هذه القهوة ، على الشط . والقهوة وقف على الجامع العادلي ، وهو مستأجر الآن . لقد ذهبت أقسام من هذه الكتابة ، والذي يقرأ منها اليوم هو ما يأتي (انظر اللـوح ٩ : أ ـ ب ـ ج) :

« ٠٠٠ (ظهر في عسره) (١٣٨) الزاهر ، لاجئا الى حرم أمين وركن شديد ، وذلك في سنة ثلثين وستماية ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله » (١٣٩) .

الكتابة الخامسة :

لا وجود لها الآن . ولكن عندما زار بغداد الرحالة نيبهر ، سنة ١١٤٦ هـ (١٧٥٠ م) ،

---

(١٣٤) في فيوله : تحريضا .

(١٣٥) في هرتسفلد ورسالة «المدرسة المستنصرية» : « عر سو بحر الدين » وهو تحريف ظاهر . والصواب « هل يستوى الذين » وهذه مقتطفة من الآية « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (سورة الزمر . الآية ٩) .

(١٣٦) ما بين القوسين من فيوله .

(١٣٧) ورد هذا النص في :

أ — Massignon (II, 46).

ب — Sarre u. Herzfeld. (II. 162).

(١٣٨) ما بين القوسين منقول من ماسنيون وهرتسفلد « في عهده الزاهر »

(١٣٩) ان قسما من هذا النص ظهر في الصورة المطبوعة في الصفحة ٦٠٥ من رحلة :

Dieulafoy (Mme Jane); *La Perse, la Chaldée et la Susiane* (Paris, 1887).

نقل هذه الكتابة من المستنصرية ، واليك نص ما وجده (١٤٠) :

« قد أمر بانشاء هذه المدرسة الشريفة لطلاب العلم وتسمى المدرسة العظمى (من مكن)(١٤١) دولة العز وأسعد الخلائق (بـ) المحجة البيضاء ، (الحظى) عند الله وخليفته في أرضه ، الخليفة أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين ، أمتع الله المسلمين باعزاز سلطانه ، وأبد دولته بطول حياته ، وذلك سنة ستمائة وثلاثين ، (١٤٢) .

الكتابة السادسة

الجبهة الجنوبية من المدرسة ، بنى بحذائها رواق كبير مستحدث . ويرى في أعلى هذه الجبهة من داخل الرواق ، آثار كتابة تحف بها زخرفة .

انا نعتقد ان هذه الكتابة كانت تمتد بامتداد الجبهة . ولكن مرور الايام قد محت بعضا منها ، كما ان البعض الآخر قد اختفى تحت طبقة الجص التي طلى بها الجدار قصد تقويته ! ولو أن طبقة الجص هذه قلعت بعناية ، لامكن قراءة النص بوجه أتم يمكن أن نخرج منه بفائدة تاريخية . أما ما يمكن قراءته منه الآن ، فهو :

« ... سنة ... وثلثين و (ستـ) ـمـ (ـائة) .... وا ... »

ولم نجد بين من كتب في تاريخ المستنصرية من الباحثين ، من أشار الى هذه الكتابة .

---

(١٤٠) Niebuhr; *Voyage en Arabie*. (Vol. II, p. 241).

وقد نقلها عنه ماسينيون (Mission,II, 47) . وأورد منيان ترجمة هذه الكتابة الى الانكليزية في رحلته الموسومة :

Mignan; *Travels in Chaldaea*. (London 1829, pp. 97-98).

(١٤١) نقل الاب انستاس مارى الكرملي هذه الكتابة عن نيبهر ، في مجلة المشرق (١٠ (١٩٠٧) ص ٣٩٣ . وقد عقب عليه بقوله : « والظاهر ان الذي كتب لنيبهر هذه الكتابة كان جاهلا ، ولا أظن انه نقل ما كان مكتوبا هناك بحرفه بل بمعناه . وان كان نيبهر يقول انه قابلها على الاصل ، لان الاغلاط الموجودة فيه ، وركاكة العبارات تشهد بذلك . فما وضعناه بين معكفتين هو من زياداتنا لتقويم العبارة . والناقل كان قد كتب العظمى : العظماء . وستمائة : ستة مائة » ا هـ .

(١٤٢) كذا بتقديم ستمائة على ثلاثين . وهذا بخلاف النصوص الاخرى التي تذكر التاريخ « ثلاثين وستمائة » .

الكتابة السابعة (١٤٣)

على جدار الكمرك ، المطل على دجلة ، كتابة حديثة العهد بالنسبة الى رفيقاتها المذكورة سابقا، لانها كتبت سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) في عهد السلطان عبدالعزيز العثماني (١٤٤) . وهي تتألف من سطر واحد طوله يكاد يكون طول المدرسة (انظر اللوح ١ أ) .

وهذا السطر المحدث ، كتب في ما نرى ، بمكان كتابة قديمة من عهد المستنصر ، تلك التي أوردنا نصها في « الكتابة الثانية » .

والاسباب التي تحملنا على أن هذه كتبت بمكان تلك ، هي :

أولا ـ ليس من المعقول في مثل هذه البناية ، أن تخلو أبرز جبهاتها وأجملها ، وهي جبهة النهر ، من كتابة تظهر للعيان لتخلد اسم بانيها وتؤرخ بنيانها .

ثانيا ـ ولقد مر بنا ، ان جبهة المستنصرية الشرقية ، والجنوبية ، كانتا مزدانتين بشريط من الكتابة . فلا غرو أن تكون الجبهة الغربية على هذا الغرار .

ثالثا ـ وهو دليل محسوس ، يراه كل من اذا أعمل النظر قليلا في كتابة عبدالعزيز العثماني، فان هذه الكتابة تبدأ بالعبارة التالية :

« ما شاء الله كان . بسم الله الرحمن الرحيم . ولتكن ... » واذا نظرنا الى صورتها الفتغرافية في اللوح ١١ أ) ، ألفيناها بزخرفتها وكتابتها قديمة العهد ، لا تختلف عن سائر الكتابات التي انتهت الينا من عهد المستنصر . وهي في الوقت نفسه تخالف سائر كتابة عبدالعزيز (انظر اللوح ١١ ـ ب واللوح ١٢ ـ أ) في اسلوب كتابتها وزخرفتها . فلما أراد عبدالعزيز تخليد اسمه على جدار هذه المدرسة ، محا ما كان متبقيا في زمنه من سائر هذه الكتابة ـ هذا اذا لم يكن ممحوا قبل عهده ـ ثم كتب مكانه هذا النص :

« ما شاء الله كان . بسم الله الرحمن الرحيم . ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون(١٤٥) . قد كان انشىء هذا البناء في أيام خلافة

---

(١٤٣) ورد نص هذه الكتابة . في :

أ ـ المشرق (١٠ (١٩٠٧) ص ٣٩٣ بالحاشية) والنقل للاب أنستاس الكرملي

ب ـ Sarre u. Herzfeld (II, 162).

ج ـ المدرسة المستنصرية لناجي معروف (ص ٦٩ ـ ٧٠) .

(١٤٤) حكم من سنة ١٢٧٧ الى ١٢٩٣ هـ (١٨٦١ ـ ١٨٧٦ م) .

(١٤٥) سورة آل عمران : الآية ١٠٣ .

عبدالله أبي جعفر المنصور المستنصر بالله العباسي ، في سنة ثلاثين وستمائة . وقد تجدد تعميره في زمن خلافة ظل الله الاعظم الممدود ظل رأفته على مفارق الامم ، مجدد قوانين أجداده العظام سلاطين آل عثمان ، مجدد جهات العدل والاحسان السلطان بن السلطان حضرة السلطان عبدالعزيز خان ابن السلطان الغازي محمود خان ، لا زالت البلاد بعدالته معمورة ولا برحت العباد بفيض احسانه مغمورة آمين . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وكان ذلك في سنة اثنتين وثمانين ومائتين (١٤٦) وألف . كتبه المذنب بكر الصدقي عفى عنه » .

١٠ً — زخارفهـــا

يلاحظ ان جدران الطبقة العليا من المستنصرية ، مزخرفة من خارجها بزخارف اعتيادية تتماثل في بعضها وتختلف في بعضها الآخر . وهي الزخرفة المعروفة اليوم بين البنائين بـ « الحصيري » ، فكأنها في تكوينها أشبه شيء بنسيج الحصير (انظر اللوح ٦ ب – ج) .

وأجمل زخارف المستنصريه الآن ، هي التي تزين بواطن الاواوين (اللوح ٤ أ – ب ، واللوح ٥ ، واللوح ٦ أ) ، ووجوه بعض الحنايا والابواب (اللوح ٢ ب ، واللوح ٣ – أ) وقد مر بنا وصف ذلك في مواطنه المختلفة من هذا البحث .

وما من شك ، في أن كثيرا من زخارف المستنصرية قد تلف بفعل العوامل المختلفة وضاع ، فخسرنا بضياعه عنصرا ثمينا من عناصر الفن الاسلامي ، مما لا يعوض عنه .

تمتاز آغلب هذه الزخارف ، بكونها محفورة في الآجر . وصناعة حفر الآجر بهذا الوجه الدقيق من الصعوبة بمكان . وها ان بنائي اليوم حينما يريدون تقليد قطعة من هـذه الزخرفة ، يلتاث عليهم الامر ، وهيهات أن يبلغوا في الدقة شأو تلك القديمة !

وزخرف الآجر في هذه المدرسة تذكرنا بزخارف القصر العباسي في قلعة بغداد . ففي كليهما تبدو الزخرفة العربية بأجلى مظاهرها ، ونرى التفنن في ذلك قد بلغ حدا قل أن نجد ما يماثله في المباني الاسلامية في العراق .

وان ما نراه من زخارف المستنصرية اليوم ، لخير نموذج للزخارف الاسلامية في العراق ، في المائة السابعة للهجرة (المائة الثالثة عشرة للميلاد) . فاذا قايسنا بالزخارف المكتشفة في سامراء ، وهي من أعاجيب الفن في المائة الثالثة للهجرة ، وجدنا بينهما فروقا واختلافات جمة . فزخارف

---

(١٤٦) سقطت هذه اللفظة في نص « المشرق » ورسالة « المدرسة المستنصرية » .

سامراء كانت من الجص ، وهي تتألف في الغالب من أوراق وعناقيد وضفائر (١٤٧) .

أما زخارف المستنصرية فتتكون من قطع الآجر المهندمة بأشكال وحجوم مختلفة ، المحفورة زخارف هندسية ونباتية تتفاوت في الحجم والعمق . وهذه القطع ، بعد أن تتم زخرفتها على انفراد ، كانت تجمع بحساب بعضها الى بعضها ، وتلصق بالجص في وجه الجدار أو السقف المراد زخرفته . فيقوم من مجموعها زخرفة عامة متآلفة لا تكاد العين تشبع من النظر اليها .

وقد تتساقط هذه الزخارف من الجدار ، فيبدو الجدار من خلفها ببنائه المجرد الساذج (انظر اللوح ٣ أ ، واللوح ٤ أ - ب) .

١٤ — مدرسو المستنصرية

لبث التدريس في المستنصرية ، سائرا سيرا حسنا بضع مئات سنين ، حفلت المدرسة في خلالها بجمهرة من أكابر علماء عصرهم الذين عين عينهم في تدريس فروع العلم المختلفة فيها .

وفي كتب تاريخ الدول الاسلامية وتراجم أبنائها ، ذكر لعدد غفير من هؤلاء المدرسين . وما من شك ، في أن جمع أخبارهم وتدوين تراجمهم بوجه واف قد يملأ مجلدا ضخما ، وهذا ليس من شرط بحثنا .

وهؤلاء العلماء الذين درسوا في المستنصرية ، خلد التاريخ ذكرهم في صحائفه ، بلغوا فيما وقفنا عليه ، نيفا وعشرين ومائة رجل ، أقدمهم شهدوا تأسيس المستنصرية في المائة السابعة ، وأحدثهم من أبناء المائة التاسعة للهجرة . لقد طالعت تراجم هؤلاء في مختلف المظان التاريخية ، فبدا لنا من ذلك كله ، انه لم يكن يعين للتدريس في هذه المدرسة ، الا من اتصف بسعة الخلق وعرف بوفرة التحصيل وغزارة العلم وسعة الاطلاع . فلا مراء أن تكون هذه المؤسسة ، في ماضيها ، موئلا للعلم ومنارا يسير بهديه طلاب المعرفة من مختلف الانحاء .

شهدت هذه المدرسة طائفة كبيرة من المدرسين المنتسبين الى المذهب الشافعي والمذهب الحنفي ، والحنبلي ، والمالكي .

ونكتفي في هذا الصدد بذكر أقدم من درس فيها . فقد رتب لها حين افتتاحها « مدرسان ونائبا تدريس كما ذكرنا . أما المدرسان فمحيي الدين أبو عبدالله محمد بن يحيى بن فضلان الشافعي ، ورشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغاني الحنفي .... وأما النائبان فجمال

(١٤٧) حفريات سامراء ١٩٣٦ - ١٩٣٩ لمديرية الآثار القديمة (١ : ١٦) .

الدين أبو الفرج عبدالرحمن ابن يوسف بن الجوزى (١٤٨) الحنبلى ، نيـــابة عن والده لانه كان مسافرا في بعض مهام الديوان ، والآخـر أبو الحسن على المغربى المالـكى (١٤٩) » .

فالمدرسان حين فتح المدرسة ، كانا للشـــافعية والحنفية . « وأما المالكية ، فلما فتحت لم يكن لهم مدرس يذكر الدروس ، فذكر الدرس لهم فقيه مغربى اسمه محمد وكان معيدا الى أن اخرج من المدرسة بعد سنة واحضر عبدالرحمن بن محمد بن عمر من البصرة وجعل ثانيا المدرس بها مدة مديدة الى أن حضر فقيه مالكى من أهل الاسكندرية اسمه عبدالله بن عبدالرحمن بن عمر فدرس بها يو م الخميس عاشر صفر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة » (١٥٠) .

فالذى كان يتبع فى المستنصرية ، أن يكون فيها « مدرس » و « نائب » و « معيد » هذا وقد سبق أن ذكرنا « الطبيب » و « راوى الحـديث النبوى » و « ملقن القرآن » .

١٥ — شروط المدرسة

للمؤرخ البغدادى الذائع الصيت ، تاج الدين على بن أنجب ، المعروف بابن الساعي ، المتوفى سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) ، كتاب فى مجلد واحد ، عنوانه « شرط المستنصرية » (١٥١) . وهذا السفر ضاع فيما ضاع من تراث الاقدمين ، ولو انه انتهى الينا لافادنا أجل الفائدة فى معرفة ماضى هذه المدرسة ولا سيما ما كان يتعلق بشروطها .

ولكننا بفقد هذا التأليف النفيس ، لم نفقد كل شـــىء . فان بعض المـؤرخين الذين دونوا تواريخهم من بعده ، لم يحرمونا معرفة الشروط التى شرطها مؤسس هذه المدرسة ، ليســـــار بموجبهـــا .

---

(١٤٨) هو حفيد الامام ابن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) صاحب « المنتظم فى تاريخ الملوك والامم » . وقد اشترك الجد والحفيد بالاسم والكنية واللقب .

(١٤٩) الحوادث الجامعة (ص ٥٥) .

(١٥٠) الجواهر المضية فى طبقات الحنفية لمحيى الدين القرشى (١ : ٣٩٦ طبع حيدر آباد) .

(١٥١) الظاهر ان الحاج خليفة (المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٦ م) ، كان قد وقف على هذا الكتاب ، فانه نقل من أوله قول المؤلف : « حمدا لمن من على عباده » . وذكر أيضا ان المؤلف ، أى ابن الساعى ، سمى كتابه هذا « مفاتيح الجنان ومصابيح الجنان » (كشف الظنون ٤ : ٤٢ طبعة فلوجل)

لقد دون غير واحد من المؤرخين (١٥٢)شروط هذه المدرسة ، ولكنهم اختلفوا فيايرادها، فمنهم من أسهب وفصل ، ومنهم من أوجز واختصر . وعندنا ان أوفى من أورد هذه الشروط، من المؤرخين الذين وقفنا على تصانيفهم ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، المتوفى سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٢ م) فقد ذكر شروط المدرسة المستنصرية، نقلا عن ابن الساعى ، فى حوادث سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م) ، قال ما هذا نصه بالحرف الواحد (١٥٣) :

« وشرط الواقف عظم الله أجره ، أن يكون عدة الفقهاء بها مائتين وثمانية وأربعين رجلا، من كل طائفة اثنان وستون ، وان يجرى لكل واحد منهم فى كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طبيخ مما يطبخ فى مطبخها ، وفى كل شهر ديناران غير الحلوى والفاكهة والصابون والزيت . وأن يكون لكل طائفة مدرس وأربعة معيدين ، وأن يكون لكل مدرس فى كل يوم عشرون رطلا من الخبز وخمسة أرطال من اللحم بقضرها وحوائجها وطبخها . وفى كل شهر اثنا عشر دينارا . وان يكون لكل معيد فى كل يوم سبعة أرطال خبزا وغرفان طبيخا ، وفى كل شهر ثلاثة دنانير ، وأن يكون فى دار القرآن المجيد شيخ يلقن القرآن وثلاثون صبيا أيتاما ومعيد يحفظ الثلاثين ، ويكون للشيخ كل يوم سبعة أرطال خبزا وغرفان طبيخا وفى الشهر ثلاثة دنانير . وللمعيد فى كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طبيخا وفى كل شهر دينار وعشرون قيراطا ، وللصبيان كل صبى فى كل يوم ثلاثة أرطال خبزا وغرف طبيخا وكل شهر ثلاثة عشر قيراطا وحبة .

« وأن يكون فى دار الحديث النبوى شيخ عالى الاسناد يشغل بعلم الحديث ، وقارىء وطلبة . ويكون للشيخ المسمع فى كل يوم ستة أرطال خبزا ورطلان لحما ، وفى كل شهر ثلاثة دنانير وللمشتغلين لكل واحد منهما فى كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طبيخا وفى كل شهر ديناران

(١٥٢) أنظر مثلا :
مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (٨ : ٤٨٩) .
تاريخ مختصر الدول لابن العبرى (ص ٤٢٥) .
الحوادث الجامعة (ص ٥٨ ــ ٥٩) .
البداية والنهاية (١٣ : ١٥٩) .
خلاصة الذهب المسبوك (٢١٢) .
تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص ٣٠٦ ــ ٣٠٧) .

(١٥٣) نقل هذا النص ، عن الاصل المخطوط فى « الخزانة الاحمدية » بحلب ، محمد راغب الطباخ ، فى نبذة عنوانها « المدرسة المستنصرية » ، نشرها فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق (٤ (١٩٢٤) ص ٤٠ ــ ٤٣) . وقد نقل هذا النص ، ا الآلوسى فى مساجد بغداد (ص ٨٧ ــ ٨٩) .

وعشرة قراريط ، وللقارىء في كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طبيخا وكل شهر ثلاثة دنانير . وللمطلبة أسوة الايتام الذين يتلقون القرآن في الخبز والغرف والمشاهرة .

« وأن يكون لخازن الكتب في كل يوم عشرة أرطال خبزا وأربعة لحما ، وفي كل شهر عشرة دنانير .

« وأن يكون للمشرف على هذا الخازن في كل يوم خمسة أرطال خبزا ورطلان لحما وفي كل شهر ثلاثة دنانير . وأن يكون للمناول في هذه الخزانة في كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طبيخا وفي كل شهر ديناران .

« وأن يكون بها نحوي يشغل بعلم العربية يكون له في كل يوم ستة أرطال خبزا ورطلان لحما بحوائجها وخضرها وحطبها وفي كل شهر ثلاثة دنانير .

« وأن يكون بها طبيب حاذق يشغل عشرة أنفس بعلم الطب أسوة طبة الحديث في الخبز والطبخ والمشاهرة .

« وأن يكون بها من كل طائفة امام يصلي بهم وقارىء للسبعة وداع يدعو ، وأن تضاعف المشاهرات في رمضان ، وأن يكون للناظر المرتب به في كل يوم عشرون رطلا خبزا وخمسة أرطال لحما بحوائجها وخضرها وحطبها وفي كل شهر اثنا عشر دينارا . وللمشرف في كل يوم عشرة أرطال خبزا وثلاثة أرطال لحما وفي كل شهر سبعة دنانير . وللكاتب في كل يوم مثل المشرف . ومعمارية وفراشون وبوابون وحمامي ومزين وقيم وطباخ وغلامه وخازن الآلات وخزنة الديوان وغلمان الديوان ومرملاتي(١٥٤) ومؤذن ونقاط(١٥٥) وقدر لهؤلاء كلهم جرايات ومشاهرات .

« وأما الدار المجاورة لهذه المدرسة في الحد الاعلى منها ، لم ير مثلها أحد ولا لادراك وصفها أمد . وهذه الشروط نقلتها من تاريخ ابن الساعي » اهـ .

١٦ — ماذا كان يدرّس فيها ؟

مرت الاشارة الى تدريس بعض الفروع العلمية في المستنصرية ، كتدريس القرآن ، والحديث ، والطب . وهنالك فروع اخرى تطرق لذكرها بعض المؤرخين . فمما شرطه المستنصر

(١٥٤) لعله يقصد به : الذي يملأ الرامل بالرمل ويوزعها على الناسخين . أو لعل الاصل « المزملاتي » وهو من يتعهد المزملات بالماء .

(١٥٥) لعل الصواب : نقاط (بالفاء) وهو الذي يتولى أمر التنوير بالنفط .

« أن يكون بها من يشتغل بعلم الفرائض والحساب الى غير ذلك ممـــا اذا استقصى ذكره طـــال تعداده » (١٥٦) .

وفي بعض المراجع القديمة ، تنويه بهاتيك الفروع . فذكرت ان المستنصرية « مجمع سائر الدين ومذاهب المسلمين وعلم الاصول والفروع المتفرق فيها والمجموع وعلم الفرائض وأحاديث الرسول ومعرفة الحلال والحرام وعلم الحساب والمسـاحات وعلم الطب ومنافـع الحيـوان وحفظ قوام الصحة وتقويم الابدان » (١٥٧) .

هذا ومما لا شك فيه ، ان علوم اللغة من صرف ونحو وبلاغة وغيرها ، وفروع الفقه ، كان لها أعظم الشأن أيضا في هذه المدرسة الجامعة .

١٧ ــ المستنصرية في مختلف العصور

ليس بالامكان تدوين تاريخ هذه المدرسة تدوينا متلاحم الاجزاء ، منذ تأسيسها الى هذا اليوم ، لان بعض حلقات تاريخها الطـويل ، ما زالت غامضة أو ضائعة . ومع ذلك ، سنذكر في هذا الفصل أهم ما وقفنا عليه في بطون الكتب المختلفة من الاخبار والاشارات الواردة بصددها ، نوردها بحسب سياقتها التاريخية .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

أولاً ــ أخبارها في المائة السابعة للهجرة :

في سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م) : فتحت المدرسة المستنصرية بالوجه الذي فصلناه في الفصـل السابع من هذا البحث .

وفي سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) : تكامل بناء الايوان الذي فيه ساعة المستنصرية (انظـــر التفصيل في الفصل العاشر) .

وفي هذه السنة أيضا ، « سأل ناصر الدين (ملك دمشق) في مدة اقامته ببغداد ، أن يحضر المدرسة المستنصرية . فأمر الخليفة بعمل دعوة واحضار فقهاء المدارس . ثم حضر ناصر الدين ، فجلس على طرف ايوانها الشمالي ، ووقف مماليكه وأصحابه في ربعي المالكية والحنفية ، ووقف عند كل طائفة حاجب ، وحضر قراء الديوان ، وقرئت الختمات ، وأنشد جماعة من الفقهاء قصائد ،

(١٥٦) الحوادث الجامعة (ص ٥٩) .

(١٥٧) خلاصة الذهب المسبوك (ص ٢١٢) .

ثم قدم المشروب وبعده أنواع الاطعمة ، فتناول ناصُر الدين من ذلك بعد أن قبل الارض مرارا ، فلما فُرغوا من ذلك انصرف الى داره » (١٥٨) .

وفي مدة اقامة الامير ركن الدين اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في بغداد ، « عملت له (سنة ٦٣٣ هـ) دعوة في المدرسة المستنصرية ، فحضر وجلس على ايوانها ، وقرأ القراء ، وذكر المدرسون الدروس ، ثم طيف به في رواقها » (١٥٩) .

وفي سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) : عمل لنور الدين ارسلان شاه بن عماد الدين زنكي صاحب شهرزور ، دعوة بالمدرسة المستنصرية ، « وحضر اليها ، وجلس على طرف ايوانها الصغير ، وفرقت الربعات ، وقرئت الختمات ، وذكر المدرسون بها الدروس ، ثم نهض فدخل دار كتبها فجلس بها ساعة ، ثم خرج متوجها الى داره » (١٦٠) .

وفي سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) : « وقعت صاعقة في شباط على الرواق بالمدرسة المستنصرية ، فشعثت منه موضعا » (١٦١) .

وفي سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) : « فتح باب مخزن المدرسة المستنصرية المقابل لباب سوق المدرسة ، وأخذ منه نحو اربعمائة رطل شمعا معمولا ، وحدود ثلثمائة رطل سكرا ، ومبلغ ثلثمائة دينار ، وثلاثون مصمتا طبرية . وقيل ان جوقة الرندى فعلوا ذلك » (١٦٢) . وقد ذكرنا هذا الخبر والاخبار الاربعة التي سبقته في مطاوى بحثنا .

وفي سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) : « أحضر مدرسو المستنصرية الى دار الوزير ، وتقدم اليهم أن لا يذكروا شيئا من تصانيفهم ، ولا يلزموا الفقهاء (١٦٣) بحفظ شيء منها ، بل يذكروا كلام المشايخ تأدبا معهم وتبركا بهم . وأجاب جمال الدين عبدالرحمن بن الجوزي(١٦٤) مدرس الحنابلة بالسمع والطاعة ، ثم مدرس المالكية سراج الدين عبدالله الشرمساحي ، وقال : « ليس

(١٥٨) الحوادث الجامعة (ص ٧٨) .

(١٥٩) الحوادث الجامعة (ص ٨٠ ـ ٨١) .

(١٦٠) الحوادث الجامعة (ص ٨٩) .

(١٦١) الحوادث الجامعة (ص ١٠٠) .

(١٦٢) الحوادث الجامعة (ص ١٣٦) ولنا تعليقات على هذا الخبر في كلامنا على « المخزن » في الفصل الثامن .

(١٦٣) يريد بهم : الطلبة .

(١٦٤) مر بنا انه حفيد الامام ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

لاصحابنا تعليقة ، فأما النقط من مسائل الخلاف فمما أرتبه ، فبان بذلك عذره . وأما شهاب الدين الزنجاني مدرس الشافعية وأقضى القضاة عبدالرحسن بن اللسغاني مدرس الحنفية ، فانهما قالا ما معناه « ان المشايخ كانوا رجالا ونحن رجال » ونحو ذلك من ابهام المساواة . فانهيت صورة الحال ، فتقدم الخليفة أن يلزموا بذكر كلام المشايخ واحترامهم ، فأجابوه بالسمع والطاعة » (١٦٥) .

وفي سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) : « تواترت الغيوث (وفاض دجلة) ... ونبع الماء من أساس حائط المدرسة المستنصرية ، ومن دار سنقرجا زعيم خوزستان المجاورة للمستنصرية ، ومن مسجد الحظائر (١٦٦) المعروف بام الناصر المجاور لهذه الدار ، وامتلأت الطريق ، وامتنع الناس من الجواز الى هناك من باب سوق المدرسة الى باب مشرعة الابريين » (١٦٧) .

وفي سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) : « توفي شرف الدين اقبال الشرابي .... بنى بواسط مدرسة على شاطىء دجلة بالجانب الشرقي ، وعمر الى جانبها جامعا ، وبنى ببغداد مدرسة في سوق السلطان .... وجلس الوزير وأرباب المناصب في العزاء بالمدرسة المستنصرية » (١٦٨) .

وفي سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) : « زادت دجلة زيادة عظيمة .... وكان علو الماء في المدرسة النظامية زيادة على أربعة أذرع ... وصلى الناس عدة جمع في المدرسة المستنصرية ، وكان الناس يحضرون بالسفن ، فامتلأت المدرسة وعلق بابها ، واتصلت الصفوف في السفن من باب المستنصرية الى سوق المدرسة والى آخره » (١٦٩) .

وفي سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) : « لما فتح السلطان هلاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، أمر أن يستفتى العلماء ، أيما أفضل : السلطان الكافر العادل ، أم السلطان المسلم الجائر ؟ ثم جمع العلماء بالمستنصرية لذلك . فلما وقفوا على الفتيا ، أحجموا عن الجواب . وكان رضي الدين علي ابن طاووس حاضرا هذا المجلس ، وكان مقدما محترما . فلما رأى احجامهم ، تناول الفتيا ، ووضع خطه فيها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر ، فوضع الناس خطوطهم بعده » (١٧٠) .

وفي سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) : عمل دولاب تحت مسناة المدرسة ، يقبض الماء من دجلة

---

(١٦٥) الحوادث الجامعة (ص ٢١٦ ـ ٢١٧) .

(١٦٦) هذا يوافق مسجد الخفافين في جنوبي المستنصرية (الناشر) .

(١٦٧) الحوادث الجامعة (ص ٢٣١) .

(١٦٨) الحوادث الجامعة (ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩) .

(١٦٩) الحوادث الجامعة (ص ٣١٧ ـ ٣١٨) .

(١٧٠) الفخري لابن الطقطقي (ص ١٥) .

ويرمى الى مزملتها . (راجع موضوع « المزملة » فى الفصل الثامن) .

وفيها أيضا ، جدد تطبيق صحن المدرسة ،وتبنيد حيطانها (راجع موضوع « المزملة ») .

وفى سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) : « وصل السلطان أباقا خان الى بغداد .... وأمر بالاحسان الى الرعايا وتخفيف التمغات وحذف الاثقال عنهم ، وكتب ذلك على حيطان باب جامع المستنصرية » (١٧١) .

وفى سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) : « عين الشيخ محى الدين محمد بن المحيا العباسى خطيبا بجامع المدينة المعروف بجامع السلطان ، ولصلاة العيدين بالمدرسة المستنصرية . وشرط الواقف : أن لا يخطب بها الا هاشمى عباسى . ولم يخطب بالعراق بعد الواقعة (١٧٢) خطيب هاشمى سواه » (١٧٣) .

وفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٣ م) : « سقط بعض الفقهاء بالمدرسة المستنصرية من غرفة الى صحن المدرسة ، فمات فى يومه » (١٧٤) .

وقد ذكرنا هذا الخبر فى الكلام على « صحن المدرسة » وأعدناه هنا لسياقة الاخبار .

وفى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) : « اشتهر ببغداد ، ان عز الدولة بن كمونة اليهودى ، صنف كتابا سماه « الابحاث عن الملل الثلاث » تعرض فيه بذكر النبوات .... فثار العوام وهاجوا .... فركب الامير تمسكاى شحنة العراق ومجد الدين بن الاثير وجماعة الحكام الى المدرسة المستنصرية ، واستدعوا قاضى القضاة والمدرسين لتحقيق هذه ... » (١٧٥) .

وفيها أيضا « اجتمع الفقهاء بالمستنصرية على جمال الدين الدستجردى صدر الوقوف ، ونالوا منه وأسمعوه قبيح الكلام ، فحماه منهم الشيخ ظهير الدين البخارى المدرس وخلصه من أيديهم » (١٧٦) .

وفى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) : « دخل السلطان غازان المدرسة المستنصرية من الدار المجاورة لها » (١٧٧) . وكنا قد ذكرنا هذا الخبر فى كلامنا على « خزانة الكتب » .

---

(١٧١) الحوادث الجامعة (ص ٣٧٥) .

(١٧٢) يريد بها سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

(١٧٣) الحوادث الجامعة (ص ٣٨٥) .

(١٧٤) الحوادث الجامعة (ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦) .

(١٧٥) الحوادث الجامعة (ص ٤٤١) .

(١٧٦) الحوادث الجامعة (ص ٤٤١ ـ ٤٤٢) .

(١٧٧) الحوادث الجامعة (ص ٥٤) .

ثانياً — أخبارها فى المائة الثامنة للهجرة :

فى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) ، زار المدرسة المستنصرية ، الرحالة ابن بطوطة ، فأطنب فى وصفها (١٧٨) ، بما كنا نقلنا بعضه فى مواطن سبقت من هذا البحث .

وفى سنة ٧٤٠ هـ (١٣٢٩ م) ، ذكرها حمد الله مستوفى القزوينى ، فقال ان بناءها من أجمل مبانى بغداد يومئذ (١٧٩) .

وورد فى أخبار مدرسة خواجه مسعود الشافعى بن سديد الدولة اليهودى ؛ انه بناها فى أواخر المائة الثامنة للهجرة ، فى عهد السلطان أحمد بن أويس الجلايرى ، على صفة المستنصرية (١٨٠) ، وذلك يدل على استمرار المستنصرية على حالها القديم فى التدريس .

ثالثاً — أخبارها بعد المائة الثامنة للهجرة :

فى أحد الشهور من سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) ، قدم الى القاهرة كتاب أحد المتصرفين المصريين واسمه فخر الدين ابن أبى الفرج ، من بغداد ، وكان فى كتابه انه يقيم اذ ذاك ببغداد فى المستنصرية ، وكان هرب خوفا على نفسه (١٨١) . وهذا يدل على حسن حال المدرسة فى تلك الايام لان نفقاتها تحملت نفقة الضيوف فضلا عن الفقهاء .

وفى سنة ٩٤٠ هـ (١٥٣٣ م) كان يحكم بغداد من قبل الفرس ، محمد خان التكى . فهذا، لاسباب سياسية وعسكرية ، صمم على الهزيمة الى ايران . فلما عرض على رجاله أن يرافقوه ، رفضوا طلبه وتمردوا وخلعوا طاعة هذا الخان ، ونفلسوا صفوفهم واستولوا على « المدرسة المستنصرية » ، فجعلوها حصنا لهم (١٨٢) .

---

(١٧٨) رحلة ابن بطوطة (٢ : ١٠٨ — ١٠٩ و ٣ : ٢٦٩ طبعة باريس) .

(١٧٩) نزهة القلوب (ص ٣٥ طبعة لسترنج . ليدن ١٩١٣) .

(١٨٠) مختصر التاريخ الغياثى (ص ١٠ — ١١ من نسخة الدكتور مصطفى جواد .)

(١٨١) اصول التاريخ والادب (١٢ : ٨٨) .

(١٨٢) راجع :

Huart (C.); *Histoire de Bagdad dans les temps Modernes.* (Paris, 1901; p. 37).

Longrigg (S. H.; *Four Centuries of Modern Iraq.* (Oxford 1925; p. 23).

وترجمته العربية لجعفر خياط : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث (بغداد ١٩٤١ ؛ ص ٢٥) .

Coke (R.); *Baghdad the City of Peace.* (London, 1935; p. 189).

وفى كلامنا على « موقع المستنصرية » ، أشرنا الى « المولاخانة » . وقد ورد فى كتاب « كلشن خلفاء » ([١٨٢]) ، فى أخبار سنة ١٠١٧ هـ (١٦٠٨ م) : ان بانى زاوية الدراويش المولوية ، وهى المولاخانة ، التى كانت فيما سبق قسما من المستنصرية ، هو محمد جلبى كاتب الديوان وكاتم الاسرار عند محمد بن أحمد الطويل . وان محمدا هذا كان مستقلا فى بغداد ومتغلبا عليها فى تلك السنة . وكانت هذه الزاوية فى عهد مؤلف كلشن عامرة على ما قاله فى كتابه الذى يمتد تاريخ حوادثه الى سنة ١١٣٠ هـ (١٧١٧ م) ([١٨٣]) .

وفى سنة ١٠٥٨ و ١٠٦٦ هـ (١٦٤٨ و ١٦٥٥ م) : جاء الرحالة التركى أوليا جلبى الى بغداد، فعدتكايا بغداد ([١٨٤]) ،وفيها« المولويخانة »([١٨٥]).

وفى جهانما للحاج خليفة (المتوفى فى سنة ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٦ م) ص ٤٥٩ المطبوع فى استانبول مع ذيول فى المتن نفسه ، (سنة ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ م) : ان فى بغداد مولويخانة تطل على دجلة فى موضع مبهج ([١٨٦]) .

وفى سنة ١٠٨٤ هـ (١٦٧٣ م) انشأ الوزير حسين باشا السلحدار والى بغداد ، سوقا جديدة قرب المستنصرية ([١٨٧]) ، وهى السوق التى لابد أن تكون ما يسمى اليوم بسوق الهرج او سوق بيت دانيال بجانبيها التى جدد بناؤها قبل نحو تسعين سنة .

---

(١٨٢) تاريخ هام . ألفه باللغة التركية مرتضى أفندى نظمى زاده . وفيه الاخبار منذ تأسيس بغداد الى سنة ١١٣٠ هـ . وقد طبع فى استانبول سنة ١٧٣٠ م . ونسخه المطبوعة نادرة للغاية .

(١٨٣) يعقوب سركيس فى مقاله « المدرسة المستنصرية » . (لغة العرب ٦ (١٩٢٨) ص ٣٥٨).

(١٨٤) رحلة أوليا جلبى (بالتركية) (٤ : ٤٢٠) .

(١٨٥) يعقوب سركيس فى مقاله المذكور (ص ٣٥٨) .

(١٨٦) يعقوب سركيس فى مقاله المذكور (ص ٣٥٨) .

(١٨٧) راجع :

Huart; *Histoire de Bagdad.* p. 130.

وما ورد فى هذا المرجع منقول من كلشن خلفاء .

Coke; *Baghdad the City of Peace.* p. 216-217, 327.

والمراجع غير متفقة على سنة تعيين حسين باشا السلحدار لولاية بغداد . ففى الدر المكنون لياسين العمرى ، انه ولى بغداد سنة ١٠٨١ هـ (١٦٧٠ م) . وفى بعض سالنامات بغداد (راجع مثلا الصادرة فى سنة ١٣١٨ هـ ، ص ٢٠٦) انه ولى بغداد سنة ١٠٨٥ هـ (١٦٧٤ م). وفى كلشن خلفاء انه تولاها فى محرم سنة ١٠٨٢ هـ ، وانتهت ولايته فى ٢٠ جمادى الاولى سنة ١٠٨٥ هـ

وفي سنة ١١٤٦ هـ (١٧٥٠ م) زار بغداد الرحالة نيبهر ، فرأى مطبخ المستنصرية محلا للوزن والقبانة (١٨٨) . ونسخ عن بعض جدرانه كتابة لا أثر لها اليوم . وقد نقلنا نصها منه في كلامنا على « كتابات المستنصرية » .

وفي أيام ولاية أبي سعيد سليمان باشا الكبير (١١٩٣ – ١٢١٧ هـ = ١٧٧٩ – ١٨٠٢ م) جعل المدرسة المستنصرية « خانا » ، ووقفها على مدرسته المعروفة بالسليمانية (١٨٩) .

وفي سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) : زار الرحالة الانكليزي ايفرز مدينة بغداد ، فألفى المستنصرية « خانا » ، وصفه بانه واسع ، على البنيان ، مردان بزخارف قديمة . وان الآجر الذي بني به يبدو جديدا ، كان لم يمض على صنعه الا سنوات قلائل (١٩٠) .

وفي سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٦ م) : زار الرحالة الانكليزي بكنكهام المدرسة المستنصرية ، فوجدها في خراب شديد ، ورأى جانبا منها قد اتخذ خانا . وذكر ان على جبهتها النهرية كتابة كوفية (كذا . والصواب انها بخط الثلث) على الآجر ، أرضيتها مزخرفة . وقد امحت الكتابة في كثير من المواضع . وقال ان هذه البناية من أهم ما في مدينة بغداد (١٩١) .

وقال ريموند ، قنصل فرنسة في بغداد في اوائل القرن التاسع عشر ، ان المولاخانة ، تكية للدراويش ، لا يفصلها من المدرسة المستنصرية الا طريق يفضي الى الجسر ، والظاهر انها منها (١٩٢) . وقد اتصل به ان المولاخانة كانت جامعا لطلاب المستنصرية (١٩٣) .

---

(١٨٨) Niebuhr; *Voyage en Arabie*. II, 241.

(١٨٩) تاريخ مساجد بغداد (ص ٩٨) .

(١٩٠) Evers (Lieut. Samuel); *A Journal Kept on a Journey from Bassora to Bagdad ... in the Year* 1770. (Horsham, 1784; p. 50).

ولنا أن نذكر ان الرحلة طبعت نقلا عن اسم صاحبها .

(١٩١) Buckingham (J. S.); *Travels in Mesopotamia*. (London, 1827; p. 406).

ونحن نرى ان الكتابة المتسعة التي رآها بكنكهام ، هي الكتابة « الثانية » التي أوردناها في الفصل الخاص بكتابات المستنصرية . ثم قلعت بقاياها في زمن السلطان عبدالعزيز ، ودون غيرها على هذا الجدار سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) كما أسلفنا القول عليه في الكتابة « السابعة » من الفصل المذكور .

(١٩٢) Raymond; *Voyage aux Ruines de Babylon* par M. J. C. Riche. (Paris, 1818; p. 156 et 218).

(١٩٣) يعقوب سركيس في مقال المدرسة المستنصرية (لغة العرب ٦ : ٣٥٧ – ٣٥٨) .

وعندما زار روبرت منان مدينة بغداد فى سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ م) ، تكلم على المدرسة المستنصرية ، فقال انها الآن «خان» . أما « مطبخها القديم » فدار للمكوس (١٩٤) .

وفى سنة ١٢٥٧ هـ (١٨٤١) قدم الى بغداد ، الرحالة الانكليزى فريزر ، فرأى المدرسة المستنصرية حينذاك دار للمكس (١٩٥) .

وفى نحو اواسط القرن التاسع عشر ، ذكر البحاثة الفرنسى هوفر ، ان المستنصرية كانت حينذاك مخزنا للكمرك (١٩٦) .

وفى سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٥٥ م) زار الرحالة فليكس جونس مدينة بغداد ، فرأى بقايا المستنصرية متداعية (١٩٧) .

ومن بعد ذلك ، استأجر المجلس العسكرى ، المدرسة المستنصرية من دائرة الوقف ، وجعلها « مخزنا » للابس الجنود . كما انه أسكن فيها كتيبة من جنود الموصل ، فصارت المستنصرية تعرف من ذلك اليوم بـ « خان المواصلة » . وقد دفع المجلس بدل الاستئجار عدة سنوات لدائرة الوقف ، ثم قطع ذلك وأعرض عن الاداء (١٩٨) .

وفى سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣) ، تجرأ المجلس العسكرى المذكور ، برئاسة القائد التركى رجب باشا ، على بيع المدرسة المستنصرية من « دائرة الرسومات » بمبلغ ألف وخمسمائة ليرة عثمانية ! وذلك من غير استفتاء ذوى الشأن ، اذ انها من الوقوف التى لا يحل بيعها (١٩٩) .

وفى سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) رأت دائرة الاوقاف ، أن الفرصة قد حانت للمطالبة بالمستنصرية ، فأقامت الدعوى على ثبوت وقفها ، وساعدها على ذلك جمهور من رجال العلم والادب

---

(١٩٤) Mignan (Capt. Robert); *Travels in Chaldaea, including a Journey from Bussora to Bagdad, Hillah, and Babylon, performed on Foot in* 1827 (London, 1829; p. 97).

(١٩٥) Fraser (J. Baillie); *Mesopotamia and Assyria.* (New York, 1865; p. 235).

(١٩٦) Hoefer (M. Ferd.); *Chaldée, Assyrie, Médie, Babylonie, Mesopotamie, Phénicie, Palmyrène.* (Paris, 1852, p. 343).

(١٩٧) *Memoirs* by Commander James Felix Jones. (Bombay, 1857; p. 319).

(١٩٨) تاريخ مساجد بغداد (ص ٩٨) .والمدرسة المستنصرية لناجى معروف (ص ٦٠ ـ ٦١) .

(١٩٩) تاريخ مساجد بغداد (ص ٩٨) ، ومختصر تاريخ بغداد لعلى ظريف الاعظمى (ص ١١٥) .

بغداد • وبعد أن شهد نحو الخمسين رجلا من العدول في وقفها ، وأبرزت الوثائق الرسمية ، ثبت لدى المحكمة انها من أوقاف سليمان باشا الوزير على مدرسته • فحكم القاضي ببغداد ـ وهو حينذاك محمد عصبم بك ـ بردها وقفا بشهادة التواتر والوقفيات ، وذلك في ٣ شهر ربيع الآخر ١٣٢٩ هـ • ثم ارسل اعلام الحكم الى الاستانة ليصدقه شيخ الاسلام ، ولكن بعض الايدى أخفته ، فظل أمره نسيا منسيا (٢٠٠) •

وفي سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) زار المدرسة المستنصرية ، جلالة المغفور له الملك فيصل الاول ، فاقيم له فيها حفلة ألقى فيها جماعة من الشعراء القصائد ، منهم جميل صدقي الزهاوي • وقد لهجت الصحف المحلية بهذا الاحتفال المهيب ، مؤملة احياء هذا المعهد العلمي القديم •

هذا ، والمدرسة المستنصرية ، ما زالت حتى كتابة هذا المقال ، بيد « دائرة الكمرك » ، والامل معقود أن تتسلمها مديرية الآثار القديمة العامة بعد أشهر قلائل •

وفي سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) ، اضطرت وزارة الاوقاف الى مطالبة وزارة المالية بدل استئجار المستنصرية أو تسليمها اليها • فامتنعت المالية عن ذلك ، مدعية ان وزارة المالية التركية قد اشترتها لديوان الكمارك منذ عهد بعيد ، وانها ملك لها ! فشرعت الاوقاف بتجديد الدعوى السابقة ، وبعد مرافعات بين الوزارتين في المحكمة الشرعية ببغداد ، شهد بوقفها جماعة كبيرة من ثقات الرجال ، وأبرزت الوثائق الرسمية • ولكن دعوى الاوقاف ردت • فميزت الاوقاف دعواها ، فاحيلت على محكمة سامراء الشرعية ، فحكمت بها للاوقاف ، وهي ما زالت بيدها الى الآن (٢٠١) •

١٨ — ترميم المستنصرية وإصلاحها وصيانتها

بلغ الدمار في بناء هذه المدرسة حدا يدعو الى القلق والاسف الشديدين • فمن يزرها اليوم ويتفقد بقاياها ، يتملكه الاسى لما أصاب هذا الاثر العبقري النفيس من اهمال شنيع وعدم اكتراث بقيمته التاريخية •

ومن الواجب ، المبادرة الى انتشال هذا الاثر من يد الفناء ، والعمل على اصلاحه وترميمه بوجه يكفل له البقاء مدة طويلة •

---

(٢٠٠) مختصر تاريخ بغداد (ص ١١٥) •

(٢٠١) تاريخ مساجد بغداد (ص ٩٩) ، ومختصر تاريخ بغداد (ص ١١٦) ، والمدرسة المستنصرية لناجي معروف (ص ٦٣) •

وعندنا ان أهم ما يجب صنعه فى اصلاح المستنصرية وترميمها ، بعدأن تخليها دائرة الكمرك، تنحصر فى الامور الآتى ذكرها :

أولا : تنظيف صحن المدرسة وأواوينها وبيوتها وغرفها وقاعاتها وسائر المبانى فيها ، من جميع الاوساخ والاتربة التى تراكمت فى كل مكان منها.

ثانيا : رفع السقوف المحدثة فوق صحن المدرسة .

ثالثا : هدم جميع الجدران والمبانى المستحدثة فى المدرسة .

رابعا : صيانة الجدران والحنايا والعقود المتصدعة .

خامسا : ترميم الزخارف المتقلقة واكمال الناقص منها على قدر الامكان .

سادسا : قلع طبقات الجص التى تغطى بعض الكتابات والزخارف ، لتبدو بشكلها الاصلى .

سابعا : فتح باب المدرسة الشارع على سوق الهرج ، والجد فى امتلاك الحوانيت التى تضاقه يمنة ويسرة ، ثم هدمها ، لانها لم تكن يوم بناء المدرسة ، فهى من المبانى المحدثة التى يجب ازالتها عنها .

ثامنا : العمل على انشاء ساحة بين يدى باب المدرسة ، تناسب وقيمة هذا البنيان .

تاسعا : اكمال بعض الاقسام المنهدمة من البناء ، اعتمادا على ما هو باق من نظائرها ، ليعود منظر المدرسة الى شكله الاصلى على قدر الامكان.

اننا نعتقد ان القيام بهذه الاعمال ، ليس من الامور الهينة ، فانها تتطلب نفقات طائلة ، ووقتا مديدا ، وجهدا بالغا . ولكن كل ذلك يهون اذا ما قيس بنفاسة هذا الاثر الذى سيصبح من مفاخر العراق التاريخية ، فيسر به من يشاهده ، سواء أكان من أبناء هذه البلاد أم من الاجانب .

وما أجمل ان تتخذ هذه البناية ، بعد الفراغ من اصلاحها ، متحفا للآثار أو خزانة للكتب!

١٩ — ختام البحث

ظلت المستنصرية دهرا طويلا ، تئن لاتخاذها لغير ما بنيت من أجله . فبعد ان كانت نبراسا للعلم ، ومواردا لطلابه ، عصفت بها الاحداث ، وطوحت بها الاقدار ، وتداولتها الايدى فحولتها من حال الى احوال ، وجعلت منها معتصما لجيش من العصابات ، ثم خانا ، ثم دارا للمكس ، بالوجه الذى فصلناه فى مجرى بحثنا . وهى فى جميع هذه التقلبات كانت فى حال يرثى لها منها . فلم يكن يلتفت الى قيمتها الآثارية ، ولا الى الغرض الذى انشئت له . فأدى ذلك الى اندراس اقسام منها ،

وتشعث غيرها ، حتى صارت اليوم ، وهى كما يراها الرائى ، صورة شاحبة هزيلة لتلك الغادة الحسناء التى أطنب المؤرخون فى وصفها ، وتغنى الشعراء بجمالها !

ولئن مر بالمدرسة المستنصرية هذا الدور الكئيب المظلم الذى قضى على كثير من محاسنها ، ان أجل هذا الدور قد كاد ينقضى ، فالحكومة العراقية ، رأت بعد انعام النظر تسليم هذا الاثر العباسى الجليل الى خير من يعنى به ، ويلم شعثه ، ويصون ما تبقى منه ، ويحافظ عليه محافظة الام الرؤوم على ولدها . انها رأت تسليمه الى « مديرية الآثار القديمة العامة » . وهذه المديرية ستستفرغ جهدها فى المحافظة على هذا الاثر الشاخص ، وتستعمل ما فى وسعها لاعادته الى بعض ما كان عليه أيام مجده . وهى لعمرى أهل لتحمل مثل هذا العبء الكبير ، خاصة بعد أن سبق لها احياؤها بعض المخلفات الاسلامية فى العراق وصيانتها من عوادى الزمان . وليس « القصر العباسى » فى قلعة بغداد ، و « الباب الوسطانى » ، و « خان مرجان » ، و « منارة جامع الخلفاء » فى سوق الغزل ، وغير ذلك ببعيدة عن أنظار القراء ببغداد . ففى وسع كل منهم ان يزور هذه البقايا ، ليرى بعينه ويلمس بيده الجهد البالغ فى احياء معالم هذه الآثار وصونها من عبث الدهر .

وسيأتى يوم ، ونرجو ألا يكون بعيدا ، نرى فيه المستنصرية قد بعثت فيها العناية أنوارا من سابق رونقها ، وأعادت اليها بعض جمالها ، فتبقى مفخرة الاجيال التى يعتز بها أبناء اليوم ، ويباهى بها أبناء الغد .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى